جامعة الأزهـر
كلية اللغة العربية بأسيوط

أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان الرجيم

إعداد
أ. د / داود لطفي حافظ
الأستاذ المساعد في قسم الأدب والنقد



بطاقة فهرسة

مكتبة كنوز المعرفة
اسم الكتاب: أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان الرجيم
إعـــــداد: داود لطفي حافظ
رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١١



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد،

فلطالما لما قرأت كتاب الله عز وجل، وكثيراً ما لفت انتباهي أسلوب القرآن في التصوير، حتى لكأنني أري بعيني وأسمع بأذني، وأحس بقلبي ووجداني بما يصوره القرآن الكريم، والأداة التي يصور بها هي اللفظة لا غير، ثم اطلعت على الكتب التي عنيت بأسلوب التصوير في القرآن الكريم وكنت أتمنى أن أجد فيها صورة كاملة للشيطان الرجيم في القرآن لأقارنها بتلك الصورة التي كانت في ذهني وأنا طفل صغير عن الشيطان الرجيم، ولما لم أجد طلبتي في هذه الكتب أو في غيرها من كتب الأقدمين، استخرت الله عز وجل وأقدمت على خوض غمار هذا البحث عن " أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان الرجيم " مستعيناً بالله راجياً منه العون والتوفيق.

وقبل أن نغوص في أعماق القرآن الكريم بحثاً عن الدّرر الكامنة فيه نتعرف أولاً على أسلوبه في التصوير.

أسلوب التصوير في القرآن الكريم:

التصوير من الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسَّة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس والمشهد المتطور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعني الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة، وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل.

فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة؛ وحتى ينقلهم نقلاً إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات، وينسى المستمع أن هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع. فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف، المتسقة مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة. إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة.

فإذ ما ذكرنا أن الأداة التي تصور المعنى الذهني والحالة النفسية وتشخص النموذج الإنساني أو الحادث المروي إنما هي ألفاظ جامدة، لا ألوان تصور، ولا شخوص تعبر، أدركنا بعض أسرار الإعجاز في تعبير القرآن [١].

هكذا فعل القرآن الكريم في تصوير النماذج الإنسانية والطبيعة البشرية وعبر بالصورة المحسَّة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية، وعن الحوادث المحسوسة، والمشاهد المنظورة حتى جعلها حيّة شاخصة...

وها هي ذي الأمثلة من القرآن الكريم توضح ذلك، من ذلك مثلاً ما يرسم نموذجاً إنسانيا واضحاً للعيان حين يوضح حالة تزعزع العقيدة، حيث لا يستقر الإنسان على يقين، ولا يحتمل ما يصادفه من الشدائد بقلب راسخ، ولا يجعل عقيدته في معزل عن ملابسات حياته، بعيدة عن ميزان الربح والخسارة، فيرسم لهذا التزعزع صورة تهتز وتترنح وتوشك على الانهيار:

{وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَّ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ} [٢].

وغير ذلك من القرآن من الكريم كثير [٣].

---

(١) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٣٤ - ٣٥ - دار المعارف بمصر الطبقة الثامنة .

(٢) سورة الحج: ١١ .

(٣) راجع: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم ص ٣٤ - ٦١ و ص ١٧٦ - ١٨٢ وراجع أيضا د / صلاح الدين عبد التواب: الصورة الأدبية في القرآن الكريم ص ٩٩ - ١١٥ - الشركة المصرية العالمية للنشر - لو نجمان .

فهل فعل القرآن الكريم مثل ذلك مع النموذج الشيطاني، والطبيعة الجنية؟ بمعنى هل صور القرآن الكريم الشيطان الرجيم كما صور النماذج الإنسانية والطبيعة البشرية؟ وكيف كان ذلك كيف رسم صورته الخلقية، وعبر عن قدراته الشيطانية، وتجرؤه على الخالق عز وجل، وتكبره عن الامتثال لأمره له بالسجود مع الملائكة لآدم عليه السلام، وعداوته للإنسان، وصراعه معه ليغويه ويضله؟... الخ

هذا ما ندعو الله عز وجل أن نفلح في إلقاء الضوء عليه ونحن نتتبع أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان الرجيم في ثنايا هذا البحث، لنتعرف نحن على أفعال وصفات وأعوان عدونا اللدود حتى نتجنبه ونتقيه وننجو من وسوسته وإغوائه وإضلاله وكيده... وكل أفعاله وصفاته وأعوانه ويتعرف القارئ الكريم على ما عرفناه وأردنا أن نعرفه به حرصاً منا على عموم النفع والفائدة، ورغبة منا في الأجر من الله حين نكون سبباً في هداية ضالٍ أو عاصٍ أو لاهٍ.

وحتى يتحقق لنا ذلك بعون الله وتوفيقه جاء البحث في تمهيد وثلاثة فصول..

سوف نعرض في التمهيد صورة الشيطان في الأديان الكتابية قبل الإسلام، وهي العبرية والمسيحية، وفي الفصل الأول: سنتحدث بعون الله عن صورة إبليس - رأس الجن - في القرآن الكريم من حيث خلقه ورأسه وأفعاله.

وفي الفصل الثاني: سنتحدث عن صوره الشيطان في القرآن الكريم سنعرض لما له اللغة عن الشيطان ثم أسلوب القرآن في رسم أفعال الشيطان وعددنا ثلاثة وعشرين فعلاً من أفعال الشيطان في القرآن الكريم.

وفي الفصل الثالث: سنرى أسلوب القرآن في عرض صفات الشيطان وأعوانه، وسنتعرف على ثمان صفات من صفات الشيطان، وأربعة أصناف من أعوانه وكان منهجي في التعرف على أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان الرجيم يتمثل في التعرف على مدلول الكلمة فعلاً أو اسماً أو وصفة للشيطان في اللغة واستقراء الكلمة في القرآن الكريم كله ثم أبدأ في عرض الآيات التي وردت فيها الكلمة (فعلاً أو اسما أو صفة...) وأتعرف على مدلولها في سياق الآيات التي وردت فيها ثم أعرض لدلالة الكلمة في الآيات كلها لأجمع كل وجوه الفعل أو الصفة أو الاسم في القرآن الكريم.

والله أدعو أن يوفقني ويعينني ويثيبني والقارئ الكريم، وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل، وأن يعصمنا أن نقول في كتاب الله خلاف مراده عز وجل.

{وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِّ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}

* * *

تمهيد
" صورة الشيطان في الأديان الكتابية "

١ - الشيطان في العبرية:

" إن الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية، وصورة الشيطان في عقائدهم هي أوفق مقياس لسلم التطور الذي ارتقت عليه من أقدم عصورها في التاريخ إلى العهد الذي ظهرت فيه المسيحية.

ففي أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الأرضية من إنسانية وحيوانية، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق وخلائق الشيطان.

فكان الشيطان يحضر بين يدي الله مع الملائكة، وكان الملائكة يهبطون إلى الأرض فيعاشرون بنات الناس، وكان الإله نفسه يمشي في ظل الحديقة متبرداً ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم، كما يفعل كل مخلوق من مخلوقاته في الأرض أو في السماء " (١).

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه سبحانه عن مشابهة شيء من خلقه، إذ{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} (٢).

والديانة العبرية إن أجازت مشابهة الله عز وجل لخلقه في الأكل والشرب والغيرة والحقد والانتقام، ونسبت إلى الملائكة الكرام

(١) عباس محمود العقاد: إبليس ص ٩٥، منشورات المكتبة العصرية، بيروت - صيدا .
(٢) سورة الشورى: ١١ .

النزول إلى الأرض ومعاشرة بنات الناس، فليس غريباً عندهم أن تتشابه خلائق الكائنات الأرضية من إنسانية وحيوانية مع خلائق الكائنات العلوية من ملائكة وجنيين، بل إنهم جعلوا " من هؤلاء الملائكة من يعمل في طاعة الشيطان " [(١)].

وظلت هذه الصورة للشيطان في الديانة العبرية، يحضر مع الملائكة بين يدي الله عز وجل، وتتشابه خلائقه مع خلائق الكائنات العلوية والأرضية، بل ومن الملائكة من يعمل في طاعته ظلت هذه الصورة هكذا حتى((تلاقت العبرية والمسيحية في الزمن، وكانت هذه الصورة ميراثاً مشاعاً لا يستند فيه اليهود إلى نسختهم من التوراة، ولا إلى أسانيدهم)) الرسمية ((ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد على غير ملتهم أن يقبلها، لأنهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة، أو مصادرها المجهولة، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا إلى نبي من أنبيائهم المعدودين)) [(٢)].

أما عن دور الشيطان في الديانة العبرية فهو((دور عامل مستغنى عنه، لأنه شبيه بغيره... ودوره على مسرح الخلق دور)) النكرة ((الذي ينوب عنه نكرة مثله؛ إذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم، وليس بين الإله الذي يعبدونه والإله الذي يعبده سواهم خلاف في الرضا والغضب، ولا في النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء في السلطان)) [(٣)].

(١) عباس محمود العقاد: إبليس، ص ٩٥ .
(٢) عباس محمود العقاد: إبليس، ص ٩٧ .
(٣) راجع: عباس محمود العقاد: إبليس، ص ١١٨ بتصرف .

الشيطان في الديانة المسيحية[1]:

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الأناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المحدثين إليه على اختلاف المعتقد والنية..

منها اسم الشيطان، وروح الضعف، والشرير، ورئيس هذا العالم وبعلزبول (رئيس الشياطين).

ووردت نصوص من الأناجيل تؤكد ذلك مثل إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع، والعاشر، وإنجيل يوحنا الإصحاح الثاني عشر، والرابع عشر، والسادس عشر، والعهد الجديد مرجع المسيحية الأكبر، الذي تتفق الكنائس على اعتماده في العقائد الجوهرية.. ففي هذا المرجع أول إشارة إلى تسمية الحية بالشيطان كما جاء في الإصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه " إنه التنين العظيم، الحية القديمة، المدعو إبليس، والشيطان الذي يضل العالم ".

وفي رسالة يوحنا الرسول الأولى: " من يفعل الخطيئة فهو من إبليس؛ لأن إبليس في البدء يخطئ، ولأجل هذا ظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس.

وفي هذه الرسالة أيضاً أن الإنسان من الله أصلاً ولكن " العالم كله قد وضع في الشرير.

وقد استرسل المسيحيون الأوائل في حديث الحية لأنهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس.

(١) راجع في هذا المبحث: عباس محمود العقاد: إبليس من ٩٧ إلى ١١٩ .

ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت في كل وجهة تتجه إليها بالكلام في " الشيطانيات " أو علم " الديمنولوجي " كما عرف في الزمن الأخير.

وانقسم الباحثون في الديمنلوجي قسمين متنازعين: قسم اللاهوتيين وهمهم الأكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الأكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيطان، ويشككو في وجود الشيطان أو يجزموا بإنكاره لأنه لا يظهر لهم عياناً أو يظهر بالتجربة والبرهان.

إن رسالة المسيحية في تقرير طبيعة الشيطان نفسه هي تفرقة أخرى لا تقل في قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء.

لقد كان الضرر والشر مترادفين في الديانة العبرية أو كالمترادفين، والمسيحية هي التي فرقت بين الضرر الذي هو نقيض السلامة والأمان والمنفعة، وبين الشر الذي هو نقيض الخير والفضيلة والصلاح، فذلك ضرر مرتبط بالديانة، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى.

إن المسيحية هي التي فرقت بين مثال الضرر في الحية الحيوانية ومثال الشر في الروح الخبيث الذي ينفث سمومه في القلب ولا يضير الإنسان إلا حيث يضار حقاً في أشرف خصال الإنسان.

أما عن دور الشيطان في المسيحية فهو دور فضولي مرذول يختلس ويراوغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف، ودوره على مسرح الخليقة دور الشرير في قصة الخلق كله، إذ كان قوام الخليقة سجالاً بين الخطيئة والكفارة أو الغفران، فلولا غواية الشيطان

لم يسقط آدم، ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة إلى الخلاص من طريق الفداء [١].

هذا عن الشيطان في الأديان الكتابية، فماذا عنه في كتاب الله عز وجل القرآن الكريم - هذا ما سنتعرف عليه في الصفحات التالية في ثنايا هذا البحث كله.

* * *

(١) راجع فيما سبق بتصرف: العقاد: إبليس ص ٩٧ - ١١٩ .

الفصل الأول

صورة إبليـــس في القرآن الكريم

من إبليس؟

اللغة: تقول: أبلس الرجل: قطع به.. وأبلس: سكت، وأبلس من رحمة الله أي يئس وندم، ومنه سمي إبليس، وكان اسمه عزازيل، وفي التنزيل: {وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ}(١).

وإبليس لعنه الله مشتق منه، لأنه أبلس من رحمة الله أي أويس.

وقيل: إن إبليس سمي بهذا الاسم لأنه لما أيس من رحمة الله أبلس يأساً (٢).

وإبليس: رأس الشياطين، والمتمرد، والجمع أباليس وأبالسة (٣).

خلق إبليس:

يورد المفسرون روايات بعضها يقول: إن إبليس من الجن، وأخرى تقول: إنه من الملائكة (٤).

وليس من عملنا هنا أن نستقصي أقوال المفسرين في شؤون الغيب، ولكننا نلخصها إجمالاً فيما نحن بصدده من طبيعة الشيطان وطبيعة الخلائق العلوية كالملائكة والروح.

فأضعف الأقوال إن الملائكة والجن تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوي الذي يفيد معنى الخفاء.

(١) سورة الروم: ١٢.
(٢) ابن منظور المصري: لسان العرب مادة (بلس) - دار المعارف .
(٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٣ - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
(٤) راجع: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١ / ١٠٣ - ١٠٦ مؤسسة الريان ط سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

وأرجحها القول الذي أخذ به الرازي في تفسيره حيث يقول: لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة، لقوله تعالى:{وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ} (١).

وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملائكة (٢).

وإبليس خلق آخر غير الملائكة، فهو من نار، وهم من نور، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو أبى وعصى، فهو ليس من الملائكة بيقين (٣).

وسياق الآية في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} (٤)، يوحي أن إبليس لم يكن من جنس الملائكة، إنما كان معهم، فلو كان منهم ما عصى، وصفتهم الأولى أنهم:{لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (٥)، كما أن اللغة تؤكد ذلك.. فالاستثناء هنا " إلا إبليس " لا يدل على أنه من جنسهم، فكونه معهم يجيز هذا الاستثناء، كما تقول: جاء بنو فلان إلا أحمد، وليس منهم وإنما هو من عشيرتهم.

وإبليس من الجن بنص القرآن:{وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ}(٦).

(١) سورة سبأ: ٤٠ - ٤١ .
(٢) عباس محمود العقاد: إبليس ص ١٢٨، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢١٤٠ - دار الشروق - الطبعة الثانية عشر ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦م.
(٤) سورة البقرة: ٣٤ .
(٥) سورة التحريم: ٦ .
(٦) سورة الرحمن: ١٥ .

وقوله تعالى:{إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (١).
وهذا يقطع بأنه ليس من الملائكة (٢).

وعلى هذا فالمقطوع به من النصوص بالإضافة إلى دلالة تصرفه أنه ليس من الملائكة وهذا ما نختاره (٣).

وهذه نقطة مهمة لابد أن نفهمها قبل أن نمضي في الحديث عن الشيطان.. لاشيء في كون الله يتمرد على أمر الله، ولكن الله خلق خلقاً مقهورين على الطاعة هم الملائكة وخلقاً مختارين في أن يطيعوا أو يعصوا وهم الإنس والجن، ومن خلال هذه الإرادة، إرادة الله سبحانه وتعالى أن يخلق خلقاً قادرين على الطاعة، وقادرين على المعصية وجاءت المعصية على الأرض (٤).

* * *

رأس الشيطان

الرأس من كل شيء أعلاه، والرأس سيد القوم، والجمع أرؤس ورؤوس (٥). ولم يرد في القرآن الكريم شيء عن خِلْقةِ الشيطان إلا آية واحدة تشبه طلع شجرة الزقوم برءوس الشياطين، فما شجرة الزقوم، وما رءوس الشياطين؟ " شجرة الزقوم: شجرة لا وجود لها في الدنيا، وإنما يخلقها الله في النار؛ كما يخلق فيها الحيات والعقارب، وخزنة النار والأغلال والقيود، جعلها الله محنة وعذاباً

(١) سورة الكهف: ٥٠ .
(٢) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٨ بتصرف .
(٣) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢١٤١ .
(٤) الشيخ محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ٦، مكتبة الشعراوي الإسلامية - - أخبار اليوم - قطاع الثقافة .
(٥) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٢٤٩ .

للظالمين في الآخرة، أصل هذه الشجرة في قعر جهنم، طلعها، ثمرها الذي يطلع منها - في تناهي قبحه وكراهيته - كأنه رءوس الشياطين في قبح منظرها وبشاعتها، يكره أهل النار على أكلها، فهم يتزقمونه على أشد الكراهية، والتشبيه بها جاء على نحو ما جرى به استعمال المخاطبين من التشبيه بالشيطان إذا أرادوا المبالغة في تقبيح الشيء، فيشبهون كل ما تناهى في القبح بما يتخيله الوهم وإن لم يروه، وهو وجه الشيطان ورأسه، على حد التشبيه بأنياب الأغوال " (١).

وجاءت هذه الآية:{طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ} (٢) في سياق الآيات التي تتحدث عن النعيم المقيم الذي أعده الله لعباد الله المخلصين في جنات النعيم، وتقول:{أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ}... " إلى أن تصل الآيات إلى قوله تعالى:{أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيم * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِّنْ حَمِيم} (٣)، والمعنى أذلك الرزق المعد لأهل الجنة خير أم شجرة الزقوم المعدة لأهل النار (٤).

* * *

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٥٦٨، مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة الثامنة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .
(٢) سورة الصافات: ٦٥ .
(٣) سورة الصافات: ٤١ - ٦٧ .
(٤) الشيخ حسنين مخلوف / ص ٥٦٨ .

أفعال إبـليس

ورد اسـم " إبلـيس " لعنـه الله، فـي القرآن الكـريم إحـدى عشـرة مرة، سبع مرات منها جاءت في سبعة مواضع تحدثت عن الذنب الأكبر الذي ارتكبه إبليس وهو الامتناع عن أمر الله له بالسجود لآدم عليـه السلام سجود تحيـة وإعظـام، ولـيس سـجود عبـادة، ومـا ترتـب على هذا الذنب من أحداث، والموضـع الثـامن تحدث عن فريـق من العصاة الجاحدين من بني آدم أطـاعوا إبلـيس بإغوائـه لهم فحققوا لـه بـذلك مـا كـان يظنـه ظنـاً أنـه بإغوائـه إيـاهم يتبعونـه ويطيعونـه فـي معصية الله " [1]، والموضع الأخير تحدث عن مصير جنود إبليس في جهنم [2].

وفي المواضع السبعة التي تحدثت عن امتناع إبليس عن السجود لآدم صدرت من إبليس أربعة أفعال هي الإباء، والاستكبار، والكفر، والفسق، وسنبدأ جولتنا في رحاب القرآن الكريم نتعرف على صفات إبليس من خلال هذه الأفعال، ونبدأ أولاً ببيان معنى هذه الأفعال التي صدرت من إبليس والتي تصور صفاته، ثم نتحدث بعون الله عن هذه المواضع تفصيلاً.

* * *

(١) سورة سبأ: ٢٠ وما بعدها: { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ}
(٢) سورة الشعراء: ٩٥: { فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ}

الإباء والاستكبار والكفر والفسق

الإباء: شدة الامتناع، فكل إباء امتناع، وليس كل امتناع إباء [١]، ويأتي بمعنى الاستعصاء، والكره للشيء، وعدم الرضا به والترفع عنه، يقال: " أبى علي يأبى إباء، وإباءة: استعصى، وأبى الشيء: كرهه ولم يرضه، وأبى عنه: ترفع، فهو آب من قوم أباة " [٢].

والاستكبار: يأتي على وجهين، أحدهما: أن يتحرى المستكبر ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب، وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب فمحمود.

والثاني: أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم[٣]، أو يمتنع عن قبول الحق معاناة وتكبراً أي تعظماً [٤]، وعليه يحمل ما حدث من إبليس في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} [٥].

" والكافر: من لا يؤمن بالله، أو من فقد إيمانه [٦]، بأن كان مؤمناً ثم كفر، " وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة [٧].

الفسق: الخروج عن حَجْرِ الشرع وذلك من قولهم فسق الرطب إذا خرج عن قشره، وهو أعم من الكفر.

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص ١٨، المكتبة التوفيقية .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤ .
(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٤٢٤ .
(٤) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٥٢٥ .
(٥) سورة البقرة: ٣٤ .
(٦) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٥٣٦ - ٥٣٧ .
(٧) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص ٤٣٦ .

والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير لكن تعورف فيما كان كثيراً.

وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقرَّ بهِ ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه. وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة (١).

ويقال: فسق فلان: عصى وجاوز حدود الشرع، وفسق عن أمر ربه أي خرج عن طاعته (٢).

وقد جاء امتناع إبليس عن السجود لآدم في القرآن الكريم في سبعة مواضع، ثلاثة منها بلفظ أبى.

الموضع الأول: جاء فيه الإباء مقروناً بالاستكبار والكفر في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} (٣).

الموضع الثاني: جاء الإباء موضحاً أنه عن السجود في قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ المَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} (٤).

الموضع الثالث: جاء الإباء عن السجود فقط في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى} (٥).

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٣٨٢ .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤٧١ .
(٣) سورة البقرة: ٣٤ .
(٤) سورة الحجر: ٢٨ - ٣١ .
(٥) سورة طه: ١١٦ .

الموضع الرابع: جاء الامتناع بلفظ الفسق في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} (١).

الموضع الخامس: جاء امتناع إبليس عن السجود معللاً بأنه لا يسجد لمخلوق من طين في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} (٢).

الموضع السادس: علل إبليس امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه، قال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٣).

وكذا في الموضع الأخير علل إبليس امتناعه عن الامتثال لأمر الله للملائكة وهو معهم بالسجود بنفس التعليل، قال تعالى:{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٤).

(١) سورة الكهف: ٥٠ .
(٢) سورة الإسراء: ٦١ .
(٣) سورة الأعراف: ١١ - ١٢ .
(٤) سورة ص: ٧١ - ٧٦ .

وأمام مجيء هذه الآيات في الموضوع الواحد بأساليب مختلفة ننبه إلى أن " القصص القرآني يرد في مواضع ومناسبات، وهذه المناسبات التي يساق القصص من أجلها هي التي تحدد مساق القصة، والحلقة التي تعرض منها، والصورة التي تأتي عليها، والطريقة التي تؤدى بها تنسيقاً للجو الروحي والفكري والفني الذي تعرض فيه، وبذلك تؤدي دورها الموضوعي، وتحقق غايتها النفسية وتلقي إيقاعها المطلوب [(١)].

وهذا ما سنحاول التعرف عليه في ظلال الآيات الكريمة السابقة التي تحدثت عن موضوع السجود لآدم عليه السلام، وكيف أنها جاءت بأساليب مختلفة فنقف أمام قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} [(٢)]. نرى أن السجود الذي أمر الله به الملائكة ليس هو سجود العبادة بوضع الجبهة في الأرض، ولكن الأظهر أنه السجود بالمعنى اللغوي وهو التواضع والخضوع لآدم تحية وتعظيماً، وإقراراً له بالفضل دون وضع الجباة كسجود إخوة يوسف له، وهو إنما كان بالانحناء، وقد أبطل الإسلام ذلك وجعل التحية السلام والمصافحة، وهذا الأمر ابتلاء واختبار؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحكمة " [(٣)].

(١) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٥، وراجع أيضاً: التصوير الفني في القرآن " دار الشروق .
(٢) سورة البقرة: ٣٤ .
(٣) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ١٢ .

{فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ} وهو أبو الجن، وهناك من يرى أنه من الملائكة [١]، وهو رأي مرجوح.

وكان رفض إبليس إباء واستكباراً وكفراً بكل ما تعنيه هذه الكلمات من معاني وإيحاءات إذ إنها توحي بظهور " خليقة الشر مجسمة في إبليس حيث عصيانه للجليل سبحانه، واستكباره عن معرفة الفضل لأهله، والعزة بالإثم، والاستغلاق عن الفهم " [٢].

لأنه " أبى " أي امتنع فلم يسجد ولم يكن رفضاً لآمر من يساويه بل أمر الجليل سبحانه وتعالى، ولم يكن رفضاً بلطف بل كان رفضاً بعنف، إذ إنه مع الرفض كان هناك الاستكبار (استكبر) تكبّر عن السجود امتثالاً لأمر الله، وتعظيماً لهذا المخلوق الذي قالت عنه الملائكة{أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [٣] من أسرار تكريمه، فلقد وهبه الله من الأسرار ما يرفعه به على الملائكة، لقد وهب سر المعرفة، كما وهب سر الإرادة المستقلة التي تختار الطريق.. إن ازدواج طبيعته، وقدرته على تحكيم إرادته في شق طريقه، واضطلاعه بأمانة الهداية إلى الله تعالى بمحاولته الخاصة، إن هذا كله بعض أسرار تكريمه " [٤].

" استكبر " إبليس وهو ليس أهلاً لأن يتكبّر على أمر الخالق الجبار المتكبر سبحانه وتعالى، لكنه امتنع عن قبول الحق بتكريم آدم

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ١٣.
(٢) راجع سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٨ .
(٣) سورة البقرة: ٣٠ .
(٤) راجع سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٧ .

معاندة وتعظماً من دون حق{وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} أي وكان في سابق علم الله من الكافرين الذين حبب لهم الشقاوة أو وصار من الكافرين " [١]، بناء على أن الكافر هو من لا يؤمن بالله أصلاً، أو من كان يؤمن ثم فقد إيمانه بالجحود والعناد.

ولعل السر في مجيء هذه الآية الكريمة على هذا النحو من الأسلوب بترادف هذه الصفات؛ الإباء، الاستكبار، الكفر في قوله تعالى:{إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} أن هذه الآية هي أول ما يطلع عليه القارئ لكتاب الله عز وجل من صفات إبليس إذ إنها ترد في سورة البقرة السورة الثانية في ترتيب المصحف الذي عرضه جبريل عليه السلام على النبي الكريم (صلي الله عليه وسلم) في العرضة الأخيرة، وهو الذي استقر عليه الصحابة الكرام والسلف الصالح، فكان لابد أن يتعرف المسلم القارئ لكتاب الله عز وجل على أكبر قدر من صفات " إبليس " عدوه اللدود حتى يكون على حذر منه، فضلاً عما تحققه الفاصلة{وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} بالياء والنون في نهاية الآية من تناسب مع فواصل المشهد القرآني في القصة ومع بقية فواصل السورة الكريمة.

وهذا الأمر الذي يعطي القرآن الكريم نغمة موسيقية عذبة تحقق له التفرّد عما عداه من كلام البشر، لأنه كلام الله{الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ} [٢].

(١) البغوي: مختصر تفسير البغوي ج ١ ص ٢١ .
(٢) سورة الرحمن: ١ - ٤ .

كما أن انتهاء الفواصل على هذا النحو بالياء الممدودة والنون فيه من التمكن من التطريب ما فيه، وقد أشار الزركشي إلى ذلك بقوله:

" وقد كثر في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحرف المدّ واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب بذلك.

وينقل عن سيبويه: أن العرب في أشعارهم إذا ترنموا فإنهم يلحقون الألف والياء والواو - ما ينوّن وما لا ينوّن - لأنهم أرادوا مدَّ الصوت.

وإذ أنشدوا ولم يترنموا، فأهل الحجاز يدعون القوافي على حالها في الترنم وناس من بني تميم يبدلون مكان المدّة النون) أ. هـ

ثم يعلق الزركشي على كلام سيبويه هذا بقوله: " وجاء القرآن على أعذب مقطع وأسهل موقف " [١]، يقصد الجمع بين المد بالياء أو الألف أو الواو والنون معاً، كما رأينا في انتهاء مقاطع الفواصل في المشهد الذي معنا بالياء والنون في قوله تعالى:{إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ} [٢].

---

(١) راجع بتصرف: الإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن ١ / ٦٨ وما بعدها، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوى والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

(٢) سورة البقرة: ٣٤ .

أما الموضع الثاني الذي جاء فيه موضحاً أنه امتناع إبليس أن يكون مع الساجدين في قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} (١).

نجد ترفع إبليس عن أن يسجد مع الملائكة الذين سجدوا لأنه يظن أنه أفضل من آدم؛ لأن آدم خلق من{صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} أي من طين يابس غير مطبوخ، له صلصلة وصوت إذ نُقر، كما يصوت الحديد، فإذا طبخ بالنار فهو الفخار، وهذا الطين (حمأ) أسود متغير (مسنون) مصور، وهذه مرحلة من المراحل التي يمر بها خلق الإنسان، وخص إبليس هذه المرحلة مرحلة الصلصال المصنوع من طين أسود متغير على صورة آدم لما يرى فيه من المهانة والحقارة - في زعمه - لهذا الطين الذي خلق منه آدم مقارنة بالنار التي خلق منها هو.

وتكبر إبليس لم يكن عن السجود لآدم فقط بل أظنه أيضاً كان تكبراً على الملائكة الذين سجدوا لآدم امتثالاً لأمر الله{فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} لأنه رفض أن يكون معهم من الساجدين، وهذا يدل على مدى تكبره وعناده واعتداده بأصل خلقته وهو النار جهلاً منه أن النار أفضل من الطين مع أن الطين المكون من ماء وتراب يكون سبباً في إطفاء جذوة النار.

(١) سورة الحجر: ٢٨ - ٣٣ .

وجاء أسلوب القرآن الكريم هنا في هذا الموقف منصباً على الإباء عن السجود لآدم مع الملائكة الساجدين؛ ليحقق تكبّر إبليس على آدم وعلى الملائكة أيضاً فضلاً عن عناده ورفضه الامتثال لأمر الله عز وجل، وجاء المقطع في نهاية الفاصلة بالباء الممدودة والنون ليحقق ما حققته الفاصلة في سورة البقرة من التمكن من التطريب جرياً على عادة العرب في الترنم والتطريب في واقع أشعارهم.

بل ليفوق عادتهم هذه بالجمع بين الإطلاق للمد والتنوين الموجود في نغمة حرف النون.

أما الموضع الثالث الذي جاء فيه الحديث عن إباء إبليس فجاء منصباً على الإباء فقط في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى} (١)، هكذا في إجمال، يجيء هذا المشهد الذي سبق في موضعين وسيأتي في مواضع أخرى؛ لأن السياق هنا سياق النعمة والرعاية فيعجل القرآن بالحديث عن مظاهر النعمة في الرعاية(٢){فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى * وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى} (٣).

كما أن الحديث عن الإباء مقصوراً على كلمة " أبى " يحقق فاصلة تتآلف مع بقية الفواصل في المشهد كله (أبى - فتشقى - تعرى - تضحى.. " الخ، وهكذا فإن القرآن الكريم عدل عن تشقيا؛ لأن

(١) سورة طه: ١١٦ .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٥٤ .
(٣) سورة طه: ١١٧ - ١١٩ .

الخطاب لآدم وحواء إلى " تشقى " ليحقق المعنى المتمثل في أن الكد والعناء لآدم خارج المنزل فقط، كما يحقق الإيقاع المنسجم مع بقية الفواصل. إنه الإعجاز!!

ويجيء الموضع الرابع في الحديث عن امتناع إبليس عن السجود لآدم ليضيف بعداً جديداً في صورة إبليس، وهو أنه كان من الجن خرج عن طوع أمر ربه، قال تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} (١).

ويجيء الامتناع عن السجود في هذه الآية بلفظ آخر غير الإباء كما سبق، ولكن يجيء بلفظ الفسق{فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} معللاً أن سبب هذا الفسوق من إبليس أنه كان من الجن، والتركيبه على هذا النحو:{إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} إذا علمنا أن الفسق هو الخروج عن دائرة الأمر، وأنه أعم من الكفر، وأنه يكون بالقليل والكثير من الذنوب، وأنه يكون لمن التزم بالشيء ثم أخل به أو أخل بما تقتضيه الفطرة وألزمه العقل أي أن إبليس لأنه كان من الجن لذا حدث منه هذا الخروج عن الدائرة المطلوبة، والإخلال بما تقتضيه الفطرة ويلزم به العقل، فكونه من الجن بكل ما تعنيه كلمة الجن من " أنه أصل الجن " (٢)، وأنه يستتر ويختفي عن الإبصار فلا يرى، وأن له عنفواناً وشدّة (٣)، كان منه هذا العصيان ومجاوزة الحد، والخروج عن طاعة الله عز وجل.

---

(١) سورة الكهف: ٥٠ .
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ٢ / ٥٤٠ .
(٣) ابن منظور المصري: لسان العرب مادة (جنن) ١ / ٧٠١ .

ويأتي الموضع الخامس في حديث القرآن عن امتناع إبليس عن السجود تكريماً لآدم مستنكراً أن يسجد لمخلوق من طين، يقول الله عز وجل:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} (١).

إنه الحسد " حسد إبليس لآدم جعله يذكر الطين ويغفل نفخة الله في هذا الطين " (٢)، فإن كان الطين حقيراً كما يظن إبليس فإن الله شرَّف هذا الطين بأن جعله خلقاً سوياً ونفخ فيه من روحه، فالروح التي تسري في آدم وهي سرّ حياته وهي من أمر الله هي سرّ كل مخلوقات الله ومنهم إبليس نفسه، إن معصية إبليس هي الحسد والكبر وهما من أعظم الذنوب.

ونظرة في الأسلوب نجد أن إبليس يستفهم مستنكراً{أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً} وجاء تعبيره عن آدم بالطين، فكأنه لا يرى آدم خلقاً من خلق الله ولكن يراه طيناً مهيناً كما يزعم.

ويأتي الموضع السادس في حديث القرآن الكريم عن امتناع إبليس عن السجود لآدم يدور في نفس المعنى السابق في الموضع الخامس وهو أنه يرى أنه خير من آدم لأنه مخلوق من نار وآدم من طين، قال تعالى:{وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٣).

(١) سورة الإسراء: ٦١ .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٤ / ٢٢٣٨ .
(٣) سورة الأعراف: ١١ - ١٢ .

في هاتين الآيتين الكريمتين نموذجان من خلق الله " نموذج الطاعة المطلقة والتسليم العميق، وهم الملائكة، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت، وهو إبليس، الذي جعل لنفسه رأياً مع الله، وجعل لنفسه حقاً في أن يحكم نفسه وفق ما يرى هو من سبب وعلة مع وجود الأمر وإبليس - لعنه الله - لم يكن ينقصه أن يعلم أن الله هو الخالق المالك الرازق المدبر الذي لا يقع في هذا الوجود شيء إلا بإذنه وقدره.. ولكنه لم يطع الأمر كما صدر إليه ولم ينفذه.. بمنطق من عند نفسه{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (١)، والجديد الذي يُضيفه هذا الموضع في حديث القرآن عن امتناع إبليس من السجود لآدم امتثالاً لأمر الله هو اعتراف إبليس أنه هو وآدم مخلوقان من خلق الله،{خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ}، لكنه اعتراف المستكبر لذا كان الجزاء العاجل الذي تلقاه لتوّه هو الطرد من الجنة وحلول الصغار والهوان به إلى يوم الدين، قال تعالى:{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ} (٢).

ويأتي الموضع الأخير في هذا الموضوع الكبير وهو امتناع إبليس عن السجود لآدم في قوله تعالى:{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٣).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣ / ١٢٦٦ .
(٢) سورة الأعراف: ١٣ .
(٣) سورة ص: ٧١ - ٧٦ .

ولما كان هذا الموضع هو الأخير الذي سيعرض له القارئ للقرآن الكريم - حسب ترتيب المصحف - لأحداث امتناع " إبليس " عن الامتثال لأمر الله له بالسجود " لآدم " عليه السلام سجود تحية وإعظام وإكرام، وليس سجود عبادة، جاء هذا الموضع فيه من البسط والتفصيل للحدث في صورة معجزة جمعت كل ما ورد فيه من أحداث في المواضع السابقة في إطناب غير مُمِل وإيجاز غير مُخِل، وأضاف ما يجعله جديداً وليس تكراراً لما سبق أو تلخيصاً له على هذا النحو:{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ} في صورة حديث إلى الملائكة أنه خلق بشراً من طين، وليس أمراً بالسجود كما ورد في المواضع السابقة:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ} (١)، كما أن الحوار هنا يختلف عما جاء في سورة الحجر{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} (٢)، إذ تحدث هنا عن مرحلة سابقة لمرحلة الصلصال في خلق آدم وهي مرحلة الطين الذي هو " التراب المختلط بالماء " (٣).

{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} فإذا أتممت خلقه " بالصورة الإنسانية وأفضت عليه ما به الحياة من الروح التي هي من أمري فخروا له ساجدين تحية له وتكريماً (٤){فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} وهاتان الآيتان:{فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} *{فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} بلفظهما هما اللتان وردتا

(١) سورة البقرة: ٣٤، وسورة طه: ١١٦، وسورة الكهف: ٥٠، وسورة الإسراء: ٦١، وسورة الأعراف: ١١ .

(٢) سورة الحجر: ٢٨ .

(٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٣٩٩ .

(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٥٨٢ .

في سورة الحجر، ولكن هذا لا يعد تكراراً وإن كانتا متطابقتين في اللفظ؛ لأنهما هنا موظفتان لخدمة هذا الحدث وهناك موظفتان لخدمة ذلك الحدث، ومثل ذلك يحدث في القرآن الكريم كثيراً وله شواهد كثيرة من الفصحى التي نزل القرآن الكريم بلسانها [١].

والحدث هناك في سورة الحجر هو سجود الملائكة لآدم المخلوق من صلصال من حمأ مسنون وفي الموضع الذي معنا الآن هو سجود الملائكة لآدم المخلوق من طين، وهذان الموضعان يوضحان مدى طاعة الملائكة وامتثالهم لأمر الله بالسجود لآدم المخلوق من طين، أو المخلوق من صلصال من حمأ مسنون.

أما امتناع إبليس عن السجود فكان في موضع سورة الحجر إباء أن يكون مع الساجدين وامتناعه هنا كان استكباراً وكفراً.

وهذا التنوع في أسلوب التعبير القرآني عن امتناع إبليس عن الامتثال لأمر الله للملائكة وهو معهم بالسجود لآدم سجود تحية وإعظام يوضح مدى جحوده وعناده وإصراره على الامتناع بكل المعاني إباء، واستكباراً، وكفراً.. وكل هذا يوضح مدى حسد إبليس لآدم وكرهه له، فهل نعي نحن بني آدم هذا الدرس ونعرف مدى عداوة وكره إبليس لأبينا آدم وإصراره على الانتقام منا نحن ذرية آدم عليه السلام؟ أدعو الله أن يرزقنا الفهم والعمل.

* * *

(١) راجع في ذلك مثلاً قوله تعالى في سورة الرحمن: " فبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان " التي تكررت إحدى وثلاثين مرة كل مرة لها معنى جديد يتناسب مع معنى النعمة التي سبقت الآية الكريمة، وغير ذلك في القرآن الكريم كثير .. وهو موضوع يحتاج دراسة مستقلة تبين وجه الإعجاز في القرآن الكريم فيما يراه بعض الناس تكراراً .

الفصل الثاني

صورة الشيطان في القرآن الكريم

١ـ الشيطان في اللغة

الشيطان: حية له عرف، والشيطان: الخبيث.

والشيطان: فيعال من شطن إذا بعد فيمن جعل النون أصلا، وقولهم الشيطان دليل على ذلك.

والشيطان: معروف، وكل عات متمرد من الجن والإنس والدواب شيطان..

وقيل: الشيطان: فعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق، مثل هيمان وغيمان من هام وغام.

قال الأزهري: والأول أكثر، قال: والدليل على أنه من شطن قول أميه ابن أبي الصلت يذكر سليمان النبي (صلي الله عليه وسلم) :

أيما شاطن عصاهُ عَكاهُ

أراد أيما شيطان، وفي التنزيل العزيز:{وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ}.. والشيطان نونه أصلية..

وفي قوله تعالى:{طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ}.

قال الزجاج: وجهه أن الشيء إذا استقبح شبّه بالشياطين، فيقال: كأنه وجه شيطان، وكأنه رأس شيطان؛ والشيطان لا يُرى، ولكنه يستشعر أنه أقبح ما يكون من الأشياء، ولو رئى لرئى في أقبح صورة، ومثله قول امرئ القيس:

أيقتُلني والمشرفي مضاجعي ::: ومسنونة زرق كأنياب أغوال؟

ولم تر الغول ولا أنيابها، ولكنهم بالغوا في تمثيل ما يستقبح من

المذكر بالشيطان وفيما يستقبح من المؤنث بالتشبيه له بالغول.

وفي الحديث: " إن الشمس تطلع بين قرني شيطان " قال الحربي: هذا مثل، يقول حينئذ يتحرك الشيطان ويتسلط فيكون كالمعين لها، قال: وكذلك قوله فيوسوس له، لا أنه يدخل في جوفه..

وقال الخطابي: قوله: بين قرني الشيطان من ألفاظ الشرع التي أكثرها ينفرد هو بمعانيها، ويجب علينا التصديق بها والوقوف عند الإقرار بأحكامها والعمل بها (١).

والشيطان: روح شرير مغو - والشيطان كل متمرد مفسد، ويقال في تقبيح الشيء كأنه وجه شيطان، ويقال ركبه شيطانه غضب ولم يعبأ بالعاقبة، ونزع عنه شيطانه: ذهب كبره واستمسك بالحلم (٢).

والله وحده يعلم شأن هذا الخلق المغيب عن البشر (٣).

وفيما يخص خطاب الله للجن هو مما اختص الله سبحانه بعلمه، والبحث فيما وراء هذا القدر لا طائل من ورائه (٤).

ونحن لا ندري كيف تتم وسوسة الشيطان، لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفية أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية

(١) ابن منظور المصري، لسان العرب، مادة (شطن) ٤ / ٢٢٦٤ - ٢٢٦٦، دار المعارف .

(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص٣٤٣، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، ١٤١١ هـ/ ١٩٩٠ م.

(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣ / ١٢٠٨، دار الشروق، الطبعة ١٢ سنة ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

(٤) السابق، ٣ / ١٢٠٩ .

إغوائه[١].

وبخصوص خلقته، فلقد كان خلق الشيطان قبل خلق الإنسان، هذا ما نعلمه،{وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ}[٢]، أما كيف هو، وكيف كان خلقه، فذلك شأن آخر، ليس لنا أن نخوض فيه، إنما ندرك من صفاته بعض صفات نار السموم، ندرك من صفاته التأثير في عناصر الطين بحكم أنه من النار، والأذى والمسارعة فيه بحكم أنها نار السموم، وصفة الغرور والاستكبار، وهي ليست بعيدة عن طبيعة النار! [٣].

* * *

٢ ـ أسلوب القرآن في رسم أفعال الشيطان

من أفعال الشيطان

١- [الإزلال] بمعنى الإسقاط والتنحية:

الزَّلة في الأصل: استرسال الرجل من غير قصد، يقال: زلت رجل تزل، والزَّلة المكان الزالق، وقيل للذنب من غير قصد زلة تشبيهاً بزلة الرجل، قال تعالى:{فَإِن زَلَلْتُم، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ، اسْتَزَلَّهُمُ} إذا تحرى زلته، وقوله:{إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ} أي استجرهم الشيطان حتى زلوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخّص الإنسان فيها تصير مسهّلة لسبيل الشيطان على نفسه " [٤].

(١) السابق: ٣ / ١٢٦٨ .
(٢) سورة الحجر: ٢٧ .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٤ / ٢١٣٩ .
(٤) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٢١٩، المكتبة التوفيقية .

يقال: " زلّت قدمه - زلاً، وزلولاً: زلقت، ويقال: زلّ في منطقه ورأيه: أخطأ، وزل عن مكانه: تنحى عنه، وأزله: أزلقه واستزله: استدرجه إلى الزلل [١].

وقد جاء هذا اللفظ الإزلال في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان في موضعين الموضع الأول في قوله تعالى حديثاً عن فعل الشيطان مع آدم وحواء حين أغراهما بالأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها:{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} [٢].

ذلك أنه بعد أن أمر الله الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس، أباح الله لآدم الجنة يسكن فيها حيث يشاء، ويأكل منها ما شاء رغداً أي هينئاً واسعاً طيباً وخصّ له شجرة بعينها لا يقربها هو وزوجته ولا يأكلا منها لكن الشيطان أزلهما عن الجنة أي نحاهما عنها ويؤكد هذا المعنى قراءة عاصم " فأزلهما " أي نحاها، أو أزلهما عن الشجرة بمعنى الزلل ويكون المعنى فأزلهما الشيطان عنها " أي بسببها، فأخرجهما الله من الجنة وأهبطهما ومعهما إبليس وبينهم العداوة ولهم في الأرض قرار وأرزاق وآجال إلى وقت مؤقت

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٢٩١، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م .
(٢) سورة البقرة: ٣٥ - ٣٦ .

ومقدار معين ثم تقوم القيامة " [١].

وهنا تتضح لنا صفة من صفات الشيطان ترسم لنا جزءاً من صورته هي الإزلال بمعنى الإزلاق والإسقاط، والإيقاع في الخطأ، وقد كانت هذه الصفة سبباً في إخراج آدم من الجنة وهبوطه إلى الأرض في ظاهر الأمر، ليكون لكل شيء في الدنيا سبب ولكن الله تعالى خلق آدم لعمارة الأرض:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً}[٢]، وذلك بناء على الرأي القائل إن الجنة التي أهبط الله منها آدم كانت في السماء وهو رأي جمهور العلماء من أهل السنة وليست جنة الأرض كما يقول المعتزلون والقدرية [٣].

ويا لجمال التعبير المصور " أزلهما " إنه لفظ يرسم صورة الحركة التي يعبر عنها، وإنك لتكاد تلمح الشيطان وهو يزحزحهما عن الجنة ويدفع بأقدامهما فتزل وتهوى " [٤]، من الجنة إلى الأرض{فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}، ولم يقصد إبليس - لعنه الله - إخراجه منها وإنما قصد إسقاطه من مرتبته وإبعاده كما أبعد هو، فلم يبلغ مقصده، ولا أدرك مراده، بل ازداد سخنة عين وغيظ نفس، وخيبة ظن، قال الله جل ثناؤه:{ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [٥]، فصار عليه السلام خليفة لله في أرضه بعد أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفة والجار! ونسب ذلك إلى إبليس؛ لأنه كان بسببه وإغوائه

(١) راجع ابن كثير ص ١٠٧ وما بعدها .
(٢) سورة البقرة بعض آية: ٣٠ .
(٣) راجع ابن كثير ص ١٠٧ .
(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٨ .
(٥) سورة طه: ١٢٢ .

" (١).

وهكذا فإن الفعل وهو الخروج من الجنة لم يكن من فعل إبليس ولكن بسببه، وكما فعل الشيطان مع آدم أبي البشر فعل كذلك مع أبناء آدم من الصحابة في غزوة أحد فأزل أقدام الرماة عن مواقعهم من أعلى الجبل فنزلوا مخالفين أمر رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ألا يبرحوا أماكنهم سواء انتصر الجيش أو انكسر، وفيها يقول الله عز وجل:{إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ} (٢).

والمعنى: " إن الذين تولوا " انهزموا " منكم " يا معشر المسلمين " يوم التقى الجمعان " جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين ولم يبق مع النبي (صلي الله عليه وسلم) إلا ثلاثة عشر رجلاً: ستة من المهاجرين: وهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهم - قوله تعالى: {إِنَّمَا اسْتَزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ} أي طلب زلتهم، كما يقال: استعجلت فلاناً إذا طلبت عجلته، وقيل: حملهم الزلة وهي الخطيئة، وقيل أزل واستزل بمعنى واحد " ببعض ما كسبوا " أي بشؤم ذنوبهم، وقال بعضهم: بتركهم المركز، وقال الحسن: ما كسبوا هو قبولهم من الشيطان ما وسوس إليهم من الهزيمة، {وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}(٣).

(١) القرطبي: تفسير القرطبي ١ / ٣٣٣ .
(٢) سورة آل عمران: ١٥٥ .
(٣) الحسين البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ١٤٧، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١،

وقد تكون الإشارة في هذه الآية خاصة بالرماة الذين جال في نفوسهم الطمع في الغنيمة، كما جال فيها أن رسول الله سيحرمهم أنصبتهم، فكان هذا هو الذي كسبوه، وهو الذي استزلهم الشيطان به....

ولكنها في عمومها تصوير لحالة النفس البشرية حين ترتكب الخطيئة، فتفقد ثقتها في قوتها، ويضعف بالله ارتباطها، ويختل توازنها وتماسكها، وتصبح عرضة للوساوس والهواجس، بسبب تخلخل صلتها بالله وثقتها في رضاه! وعندئذ يجد الشيطان طريقه إلى هذه النفس، فيقودها إلى الزلة بعد الزلة، وهي بعيدة عن الحمى الآمن والركن الركين " (١).

* * *

٢ ـ المسّ

المسّ في كلام العرب يعني اللمس، " يقال مسست الشيء أمسه إذا لمسته بيدك، ثم استعير للأخذ والضرب؛ لأنهما باليد، واستعير للجماع، لأنه لمس " وللجنون كأن الجنّ مسته، يقال: به مس من جنون " (٢).

وقد وردت مادة " مسّ " في القرآن الكريم منسوبة إلى الشيطان

سنة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن: ١ / ٤٩٧ .

(٢) ابن منظور: لسان العرب: مادة (مسس) ٦ / ٤٢٠١، دار المعارف .

في ثلاثة مواضع أولها في سورة البقرة في قوله تعالى:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (١).

والمعنى: " الذين يعاملون بالربا لا يقومون " يوم القيامة من قبورهم " إلا كما يقوم الذي يتخبطه " أي يصرعه " الشيطان من المس " أي الجنون، أي أن آكل الربا يبعث يوم القيامة كمثل المصروع " (٢).

وهذا الصرع وإن كان يحدث يوم القيامة إلا أن التشبيه وارد على فهم المخاطب لهذه الصورة في الدنيا، أي أن الآية الكريمة تثبت المسّ والصرع الناشئ عنه عن طريق الصورة التمثيلية التي عرضها.

" وسمي الجنون مساً؛ لأن الشيطان إذا مسّ الإنسان بيده، اعتداء عليه أفقده أعظم قواه، وهو العقل... وهذا التمثيل وارد على ما يزعم العرب من أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرعه ويمسّه فيختلط عقله.. وبذلك قال أهل السنّة، وهو مبني على أنه لا يوجد مانع من القول بأن الشيطان جسم كثيف " (٣).

(١) سورة البقرة: ٢٧٥ .
(٢) الحسين بن المسعود البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ١٠٠ مكتبة المعارف " الرياض " .
(٣) راجع: محمد علي السايس: تفسير آيات الأحكام ١ / ١٨١ - ١٨٥، تحقيق طه عبد الرءوف سعد - المكتبة الأزهرية للتراث سنة ٢٠٠١ م .

" وأنكر معظم المعتزلة الشياطين والجن.. وليس في إثباتهم مستحيل عقلي، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على إثباتهم، قال تعالى:{وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا} وقال:{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ} إلى غير ذلك من الآيات، وقال عليه الصلاة والسلام: " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ".

وقد أنكر هذا الخبر كثير من الناس، وأحالوا روحين في جسد والعقل لا يحيل سلوكهم في الإنس، إذا كانت أجسامهم رقيقة بسيطة على ما يقوله معظم الناس، بل أكثرهم، ولو كانوا كثافاً لصح ذلك أيضاً، منهم كما يصح دخول الطعام والشراب في الفراغ من الجسم، وكذلك الديدان، قد تكون في بني آدم وهي أحياء " (١).

وقد ردّ الشيخ محمد متولي الشعراوي على المستشرقين الذين يحاولون التشكيك في الحديث الذي يفيد دخول الشيطان جسد الإنسان " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " فيقول:

" ونقول لهم: " إن الدم به مكونات كثيرة تجري فيه، منها الحديد والفوسفات والكالسيوم، وغير ذلك من مكونات أظهرتها لنا التحاليل الحديثة، بل إن الميكروبات والجراثيم - وهي جسم مادي - تخترق الجلد وتدخل إلى الدم وتظل فترة حضانتها حتى يتكاثر، وتقوم بينها وبين كرات الدم البيضاء معارك، والشيطان ليس مخلوقاً من مادة الطين، بل هو مخلوق من مادة أكثر شفافية، وهو غاية في اللطف والدقة، فكيف نستكثر أن يخترق الجلد ويجري في الدم كما

(١) محمد بن أحمد القرطبي: تفسير القرطبي ١ / ٥٣٧ وما بعدها، دار القلم للنشر .

تجري عشرات المواد الصلبة ونحن لا نحس بها " [١].

والمس والصرع صورة ملموسة معروفة معهودة بين الناس على حد تعبير سيد قطب حين يقول تعليقاً على الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها " وما كان أي تهديد معنوي ليبلغ إلى الحسن ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة صورة الممسوس المصروع، وهي صورة معروفة معهودة " [٢]، وقد شهد بها ابن القيم، وابن تيمية، وأحمد بن حنبل وغيرهم، " يقول ابن القيم: وشاهدت شيخنا (يقصد ابن تيمية) يرسل إلى المصروع من يخاطب الروح التي فيه ويقول: قال لك الشيخ: اخرجي فإن هذا لا يحل لك، فيفيق المصروع، وربما خاطبها بنفسه، وربما كانت الروح ماردة فيخرجها بالضرب "، فيفيق المصروع ولا يحس بألم، وقد شاهدنا نحن وغيرها منه ذلك مراراً كان كثيراً ما يقرأ في أذن المصروع{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ} [٣][٤]، ولا سبيل إلى إنكارها ولن ندخل في جدال مع من ينكرون ذلك.

أما الآية الثانية التي ورد المسُّ منسوباً يها إلى الشيطان فهي قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ١٠٧ وما بعدها - أخبار اليوم، القاهرة، وانظر: إبراهيم عبد العليم عبد البر: الرد المبين على بدع المعالجين وأسئلة الحائرين في مجال المس والسحر ص ٣٦، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة .

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١ /٣٢٣ .

(٣) سورة المؤمنون: ١١٥ .

(٤) حمدي الدمرداش محمد: معجزات القرآن في علاج المس والجان ص ٧١ دار والي المنصورة.

مُّبْصِرُونَ}[١]، ولغة العرب تقول: " والطيف: المس من الشيطان،

وقرئ قوله تعالى:{إِذَا مَسَّهُمْ طَيِّفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ} و " طائف من الشيطان " وهما بمعنى.. وقولهم: طيِّف من الشيطان كقولهم لمم من الشيطان.. وأصل الطيف الجنون، ثم استعمل في الغضب ومس الشيطان [٢].

" وقال الفراء... لا يكون الطائف إلا ليلاً، ولا يكون نهاراً، وقد تتكلم به العرب فيقولون: أطفت به نهاراً، وليس موضعه بالنهار، ولكنه بمنزلة قولك لو ترك القطا ليلاً لنام؛ لأن القطا لا يسري ليلاً.

وقال الليث: كل شيء يغشي البصر من وسواس الشيطان فهو طيف، والطائف: العاس بالليل، والطائف: العسس " [٣].

وعلى ذلك فإن اللغة تستعمل الطيف والطائف بمعنى المس من الشيطان، واللمم، والجنون، والغضب، والوسوسة، مما يفيد أن الشيطان يمس الإنسان ويوسوس له ويصيبه بالغضب والجنون.

وعلى هذا يكون المعنى في الآية الكريمة: " إن الذين اتقوا الشرك والمعاصي إذا لحقهم شيء من مس الشيطان وغيره تفكروا في قدرة الله عز وجل وإنعامه عليهم، وتذكروا عقابه، وجزيل ثوابه فتركوا المعصية عن قرب، وإخوانهم من الشياطين وهم الفجّار من

(١) سورة الأعراف: ٢٠١ .
(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (طيف) ٤ / ٢٧٣٩، دار المعارف .
(٣) ابن منظور: لسان العرب، مادة (طوف) ٤ / ٢٧٢٢ .

ضُلال الإنس يعينونهم ويساعدونهم ويزيدونهم في الضلال والجهل والشر ثم لا يتوبون ولا يرجعون ولا يكفون ولا يتباطئون [١].

والآية الكريمة " تفيد " أن مس الشيطان يعمي ويطمس ويغلق البصيرة لكن تقوى الله ومراقبته وخشية غضبه وعقابه تصل القلوب بالله وتوقظها من الغفلة عن هداه.. فما للشيطان على المتقين من سبيل[٢]، لذا كان على المسلم أن يتسلح بقوة الإيمان والتقوى، وكمال العبودية لله حتى يصير من عباد الله الذين قال الله عنهم:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ} [٣].

أما الموضع الثالث الذي وردت فيه كلمة المس منسوبة إلى الشيطان فقد جاءت على لسان أيوب عليه السلام في قوله تعالى:{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} [٤].

قرأ أبو جعفر " بنُصُبٍ " بضم النون والصاد، وقرأ يعقوب بفتحهما، وقرأ الآخرون بضم النون وسكون الصاد، ومعنى الكل واحد " [٥]. فاللغة تقول: النصب بفتح الصاد وتشديد النون: الإعياء من العناء، والتعب. والنُّصْب والنُّصْبُ والنّصُبُ: الداء والبلاء

(١) راجع بتصرف: محمد بن أحمد القرطبي: تفسر القرطبي ٤ / ٣ ٧٠، دار القلم للتراث، وإسماعيل ابن كثير: تفسير ابن كثير ٢ / ٣٧٠، وعبد الجليل عيسى، المصحف المفسر ص ٢٢٥، هدية مجلة صوت الأزهر .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٤٢٠ .
(٣) سورة الحجر: ٤٢ .
(٤) سورة ص: ٤١ .
(٥) الحسين بن مسعود البغوي: مختصر تفسير البغوي ٢ / ٣ ٨٠ .

والشر[١]، وأما ما يقال " إن النصب: ما أصابه في بدنه، والعذاب ما أصابه في ماله، ففيه بعد [٢]، إذ إن اللغة تقول: العذاب: العقاب والنكال [٣]، " وكل ما شق على النفس " [٤].

والمعنى: " مسني الشيطان: المراد مرضت، ومن أدب الأنبياء أنهم ينسبون ما يؤلم إلى الشيطان، وكل خير إلى الله " نصب " أي مشقة، وشر وبلاء، و " عذاب " أي ألم يضر صاحبه [٥]، كما قال في سورة الأنبياء:{وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [٦]، والضر هو ما يمس الشخص في نفسه كالمرض والهزال " [٧].

وهذان هما الموضعان اللذان أخبرنا الله فيهما خبر أيوب عليه السلام [٨]، وليس فيهما شيء من التأويلات والإسرائيليات المبثوثة في بطون الكتب التي تنسب إلى أيوب عليه السلام ما لا يصح، " والذي جرأهم على ذلك أنهم رأوه قد شكا مسّ الشيطان " [٩]، والصواب أنه لم يشك من الشيطان، ولكنه دعا ربه أني مسني الشيطان.

فالآية تقول:{وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ} بأحسن الذكر وأثنى عليه بأحسن

(١) ابن منظور: لسان العرب ٦ / ٤٤٣٥ .
(٢) القرطبي: تفسير القرطبي ٨ / ٥٧١، دار القلم للتراث .
(٣) ابن منظور: لسان العرب ٤ / ٢٨٥٣ .
(٤) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤١١ .
(٥) عبد الجليل عيسى: المصرف المصحف الميسر ص ٦٠١، هدية مجلة صوت الأزهر .
(٦) سورة الأنبياء: ٨٣ .
(٧) عبد الجليل عيسى: المصحف المفسر ص ٤٢٩ .
(٨) القرطبي ٨ / ٥٧٣، دار القلم للتراث .
(٩) القرطبي ٨ / ٥٧٣، دار القلم للتراث .

الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه، فـ " نادى ربه " داعياً، وإليه لا إلى غيره شاكياً،

فقال: رب " أني مسني الشيطان بنصب وعذاب " أي بأمر مشق متعب معذب، وكان سلط على جسده فنفخ فيه حتى تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر وكذلك هلك أهله وماله " [١].

" وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة ومشهورة، وهي تضرب مثلاً للابتلاء والصبر، ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها، والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب عليه السلام - كما كما جاء في القرآن عبداً صالحاً أواباً، وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً، ولكنه ظل على صلته بربه، وثقته به، ورضاه بما قسم له.

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له.. ومنهم زوجته - بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه، وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء، فلما حدثته امرأته ببعض الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عينّه - قيل مائة -.

وعند ذلك توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ومداخله إلى نفوس خلصائه، ووقع هذا الإيذاء في نفسه{أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}فلما عرف ربه منه صدقه وصبره، ونفوره

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن، ص ٧١٤ .

من محاولات الشيطان، وتأذيه بها، أدركه برحمته وأنهى ابتلاءه، وردّ عليه عافيته، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ ".

والمهم أن معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه " [١].

وبعد،،

فقد أثبت القرآن الكريم المس من الشيطان للإنسان بصريح اللفظ على لسان أيوب عليه السلام{أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}[٢]، وفي قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [٣]، وقوله تعالى:{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [٤].

وصح في السنة " أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من اللحم " وفسرت اللغة المس بمعنى اللمس باليد ثم استعير للأخذ والضرب لأنهما باليد، وللجماع لأنه لمس، وللجنون كأن الجن مسته.

وأثبته العلماء من أهل السنة قديماً وحديثاً وأبطلوا كلام المعتزلة والمستشرقين.

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦ / ٣٠٢١ .
(٢) سورة الأعراف: ٢٠١ .
(٣) سورة الأعراف: ٢٠١ .
(٤) سورة البقرة: ٢٧٥ .

كما أن المس الشيطاني واقع مشهود ملموس يشهد به علماء أفاضل.

كل ذلك يؤكد قضية المس الشيطاني للإنسان وتعدّيه عليه وتأثيره فيه، ولكن ذلك كله مرهون ببعد الإنسان عن الله، وخروجه عن دائرة العبودية لله، وهذا باعتراف إبليس نفسه:{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (١).

ووعد الله{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} (٢).

* * *

(١) سورة الزمر: ٨٢، ٨٣ .
(٢) سورة الحجر: ٤٢ / ٤٣ .

٣ ـ [الوعد الخادع]

الوعد يستعمل في الخير والشر، وفي الخير الوعد والعِدَه، وفي الشر الإيعاد والوعيد.. وكلام العرب وعدت الرجل خيراً ووعدته شراً، وأوعدته خيراً وأوعدته شراً، " فإذا لم يذكروا الخير قالوا: وعدته ولم يدخلوا ألفاً، وإذا لم يذكروا الشر قالوا أوعدته ولم يسقطوا الألف... وإذا أدخلوا الباء لم يكن إلا في الشر كقولك أوعدته بالضرب " [١].

ويقال " وعده الأمر، وبه - يعده وعداً، وعدة، وموعداً، وموعدة: مناه به ووعد فلاناً البشر، وبه وعيداً: هدده به [٢]، وخوفه منه، كما سنرى.

والوعد في كلام العرب إذا أطلق فهو في الخير، وإذا قيد بالموعود ما هو فقد يقدر بالخير وبالشر كالبشارة " [٣]، تفيد بالخير وبالشر.

وقد ورد الوعد من الشيطان في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول في قوله تعالى:{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [٤] وقد قيد الوعد في هذه الآية بالخير والشر " قال ابن عباس رضي الله عنهما: في هذه الآية اثنتان من الله تعالى واثنتان من الشيطان " فاللتان من

(١) القرطبي: تفسير القرطبي ٢ / ٢١٣ .
(٢) ابن منظور: لسان العرب ٦ / ٤٨٧٢ .
وانظر: الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٥٤١ .
(٣) سورة البقرة: ٢٦٨ .
(٤) راجع بتصرف فيما سبق: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢١٣ .

الله تعالى: المغفرة، والفضل، " والمغفرة هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل هو الرزق في الدنيا والتوسعة والنعيم في الآخرة، وبكل قد وعد الله تعالى ".

وأما اللتان من الشيطان فأولاهما: الوعد بالفقر بمعنى التخويف، فمعنى يعدكم في الآية هنا (يخوفكم الفقر) أي بالفقر لكلا تنفقوا.. وهو تثبيط عن الإنفاق في سبيل الله، " وأما الثانية فالأمر بالفحشاء وهي المعاصي والإنفاق فيها " (١).

وقد قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) : " إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فيإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ومن وجد الأخرى فيتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء " (٢).

ويأتي الموضع الثاني من وعد الشيطان لبني الإنسان تعقيباً على حديث القرآن الكريم عن الشرك بالله وأن الله عز وجل لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأن هؤلاء المشركين لا يعبدون من دون الله إلا أصناماً سموها بأسماء الإناث، وما يعبدون بعبادة هذه الأصنام إلا شيطاناً عاتياً أغراهم بعبادته فأطاعوه فكانوا له عابدين وهو ملعون مطرود من رحمة الله بلغ من تمرده أن قال لله عز وجل لأقطعن من عبادك حظاً مقدراً معلوماً ولأزيغنهم عن طاعتك وتوحيدك ولألقين في صدورهم الأماني الباطلة الميسرة

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، ص ٦٧٤ .
(٢) الحديث رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح .

للعصيان [١]، فقال تعالى:{يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً} [٢].

ووعده وتمنيته ما يوقعه في قلب الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وقد يكون بالتخويف بالفقر فيمنعه من الإنفاق وصلة الرحم، ثم قال تعالى:{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ} ويمنيهم بأن لا بعث ولا جنة ولا نار{وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً} أي باطلاً " [٣].

ويأتي الموضع الثالث من وعد الشيطان للإنسان تعقيباً على أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وسجودهم وعصيان إبليس تكبراً وتمرده وتمنيه أن إن أمهله الله إلى يوم القيامة ليضلن ذرية آدم الذي فضله الله عليه إلا المخلصين الذين استثناهم الله عز وجل في قوله تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}، وحقق الله له هذه الأمنية وأمهله وتوعده هو ومن تبعه بجهنم جزاءً وافراً مكملاً، وقال له على سبيل التهديد افعل ما بدا لك مع أتباعك من ذرية آدم استخفف من استطعت منهم بصوتك بالدعاء والغناء والمزامير واجمع عليهم مكايدك وخيلك وركبان جندك ومشاتهم وشاركهم في الأموال الحرام وأولاد الزنى والأولاد الذين لا يذكر آباؤهم اسم الله عند لقاء أمهاتهم وعدهم واخدعهم وقل لهم لا جنة ولا نار ولا بعث، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً أي تزييناً للباطل، بما يظن أنه حق [٤] سجل القرآن الكريم هذا الحوار المصور صوتاً وصورة باللفظ والمعنى،

(١) حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ١٣١، الطبعة الثامنة، سنة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م
(٢) سورة النساء: ١٢٠، ١٢١ .
(٣) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ١٩٧ .
(٤) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٥١٩ .

فقال تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} (١).

وهكذا من خلال المواضع الثلاثة التي ورد فيها وعد الشيطان للإنسان كانت كلها وعود شريرة من التخويف بالفقر والأمر بالفحشاء ووعد بالشر وتكذيب بالحق، وإيفاء بالأماني الباطلة الميسرة للمعاصي في صدور أتباعه وما يوقعه في قلب بني الإنسان من طول العمر ونيل الدنيا، وما يمنيهم أن لا بعث ولا جنة ولا نار...

ونلاحظ أن الحديث عن وعود الشيطان كانت بصيغة المضارع إشارة إلى أن هذه الوعود حادثة ومكررة ومستمرة وستظل إلى يوم القيامة، وكلها موصوفة بأنها غرور وباطل وخداع وتزيين ولا يقع فيها إلا من أخلد إلى الشيطان واتبع هواه.

* * *

(١) سورة الإسراء: ٦١ - ٦٥ .

٤ ـ " التخويف "

الخوف: الفزع، وخوف الرجل إذا جعل فيه الخوف وخوفته إذا جعلته يخافه الناس، وخوف الرجل جعل الناس يخافونه [١].

والخوف: انفعال في النفس يحدث لتوقيع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب.. [٢].

وهكذا فإن الخوف في اللغة يأتي بمعنى الفزع، وهو انفعال نفسي نتيجة توقع أمر مكروه يحدث، أو شيء محبوب يضيع، والتخويف بمعنى أن يجعل الخوف فيه فيخاف، أو يجعل الخوف منه فيخافه الناس.

وقد جاء التخويف في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان في موضع واحد يوضح أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان، وهو يخوف الناس وهو قوله تعالى:{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [٣].

والآية تعقيب على الآيات السابقة عليها التي تقول:{الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} [٤].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ٢ / ١٢٩٠ .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ٢١٤ .
(٣) سورة آل عمران: ١٧٥ .
(٤) سورة آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤ .

ذلك " أن الله عز وجل قذف الرعب في قلب أبي سفيان يوم أحد بعد الذي كان منه فرجع إلى مكة، فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب وكانت وقعة أحد في شوال، وكان التجار يقدمون المدينة في ذي القعدة فينزلون ببدر الصغرى، وأنهم قدموا بعد وقعة أحد وكان أصاب المؤمنين القرح واشتكوا ذلك، فندب النبي (صلي الله عليه وسلم) الناس لينطلقوا معه فجاء الشيطان فخوف أولياءه، فقال: إن الناس " قد جمعوا لكم فأبى عليه الناس أن يتبعوه، فقال: إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد، فانتدب معه أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والزبير، وسعد وطلحة، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وأبو عبيدة بن الجراح في سبعين رجلاً فساروا في طلب أبي سفيان حتى بلغوا الصفراء.. " (١).

والآية وإن كانت تعقيباً على هذه الحادثة بعينها إلا أن معناها عام في كل عصر ومصر، ذلك أن الشيطان كان ولا يزال وسيظل " يحاول أن يجعل أولياءه مصدر خوف ورعب وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة.. ومن ثم فينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان، وأن يبطلوا محاولته، فلا يخافوا أولياءه هؤلاء، ولا يخشوهم، بل يخافوا الله وحده، فهو وحده القوي القاهر القادر، الذي ينبغي أن يخاف " (٢).

ولا يقف دور الشيطان عند تخويف الإنسان من أولياء الشيطان بل يحاول أن يسيطر على الإنسان بالخوف " فإذا أراد أن يتصدق

(١) جلال الدين السيوطي: أسباب النزول ص ٦٦، مكتبة نصير بجوار إدارة الأزهر .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٢١ .

خوفه من الفقر، وإذا أراد أن يقول كلمة حق خوفه من بطش الظالمين، وإذا أراد أن يصلي خوفه من ضياع مصالح الدنيا، وإذا أراد أن يجاهد خوفه من قوة الكافرين، وإذا أراد أن ينهي عن منكر خوفه الأذى..

وهكذا كل خير يخطر على النفس يخوف الشيطان الإنسان من أنه سيقع عليه ضرر في ماله أو نفسه أو أولاده أو وظيفته أو تجارته أو ما يهمه من أمور دنيوية.. وبهذا السلاح - سلاح الخوف - يلقي الشيطان الرعب في نفس الإنسان من ناحية الخير " (١).

* * *

(١) محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ١٠٢، مكتبة الشعراوي الإسلامية .

٥ ـ الإضلال

الضلال: العدول عن الطريق المستقيم ويضاده الهداية، قال تعالى:{فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} [١].

ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً.. ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى الكفار، وإن كان بين الضلالين بون بعيد، ألا ترى أنه قال في النبي (صلي الله عليه وسلم){وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى} [٢] أي غير مهتد لما سبق إليك من النبوة، وقال في يعقوب:{إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ} [٣] وقال أولاده:{إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} إشارة إلى شغفه بيوسف وشوقه إليه... إلى غير ذلك..

والضلال من وجه آخر ضربان: ضلال في العلوم النظرية كالضلال في معرفة الله ووحدانيته ومعرفة النبوة ونحوهما المشار إليه بقوله تعالى:{وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً}.

وضلال في العلوم العلمية كمعرفة الأحكام الشرعية التي هي العبادات والإضلال ضربان: أحدهما أن يكون سببه الضلال وذلك على وجهين إما بأن يضل عنك الشيء كقولك أضللت البعير أي ضلّ عني، وإما أن تحكم بضلاله، والضلال في هذين سبب الإضلال.

---

(١) سورة يونس: ١٠٨ .
(٢) سورة الضحى: ٧ .
(٣) سورة يوسف: ٩٥ .

والضرب الثاني: أن يكون الإضلال سبباً للضلال وهو أن يُزَيِّن للإنسان الباطلُ ليضلَّ كقوله تعالى:{**لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ**} أي يتجرون أفعالاً يقصدون بها أن تضل فلا يحصل من فعلهم ذلك إلا ما فيه ضلال أنفسهم (١).

ومن هذا النوع الأخير الإضلال المنسوب إلى الشيطان، فهو يزيّن للإنسان الباطل ليضلّ.

وقد جاءت مادة ضل واستثقافاتها في القرآن الكريم منسوبة إلى الشيطان سبع مرات ستة في مواضع على النحو التالي:

الموضع الأول:{**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً**} (٢).

والآية تتحدث عن المنافقين الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى رسول الله (صلي الله عليه وسلم) وبما أنزل على الرسل من قبله، ولكنهم يريدون أن يتحاكموا في خصومه بينهم وبين يهودي إلى الطاغوت وهو الكاهن، حيث كان المنافق يدعو إلى حكم اليهود؛ لعلمه أنهم يقبلون الرشوة، ويحكمون له بغير الحق، وكان اليهودي محقاً، وكان يدعو إلى حكم الإسلام؛ لعلمه أنّه يقضي له بالحق (٣).

ونلاحظ كلمة " يريدون منسوبة إلى المنافقين، " ويريد منسوبة إلى الشيطان، المنافقون يريدون أن يتحاكموا إلى الكاهن، والشيطان

---

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ٣٠٠ - ٣٠٢، المكتبة التوفيقية .
(٢) سورة النساء: ٦ .
(٣) ابن جرير الطبري، المصحف المفسر ص ٨٨، دار الغد العربي، وانظر أسباب النزول للنيسابوري بهامش المصحف المفسر ص ١٢٧ - ١٣٠ .

يريد أن يضلهم عن الحق ضلالاً بعيداً، أي أن الإدارة مشتركة بين المنافقين والشيطان ونسبة الإدارة إلى الشيطان تفيد أنه لا يضلهم على الحقيقة وإنما هو يريد أن يضلهم، وجاءت إرادته متفقه مع إرادتهم سلفاً: وقد جاء الأسلوب في صيغة الضال الدال على الحال والاستقبال مقروناً بكلمة يريد في الزمان والمكان الذي نزلت فيه الآية الكريمة وليعم أيضاً كل زمان ومكان تحدث فيه مثل هذه الحالة، وليوضح أن الشيطان متربص بالإنسان يريد أن يضله في كل زمان ومكان طالما توفرت إرادة المضلل والمضلل.

الموضع الثاني في قوله تعالى:{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} (١).

ويأتي الإضلال هنا بمعنى الإغواء والمعنى: أغوى منكم خلقاً كثيراً(٢) إذ إن الجبلة بمعنى " الأمة من الخلق، والجماعة من الناس، وتطلق على الخلقة والطبيعة (٣)، ويمكن الجمع بين المعنيين بأن المراد الأمة والجماعة الذين هم على خلقة وطبيعة عظيمة، كأنها الجبال قوة وصلابة وجاء الفعل (أضل) ماضياً بمعنى أغوى ذلك أن الآية جاءت في سياق خطاب الله عز وجل لبني آدم يوم القيامة،

(١) سورة يس: ٦٠ - ٦٢ -
(٢) الشيخ حسنين مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٥٦٢ مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر، الطبعة الثامنة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .
(٣) المرجع السابق ص ٤٧٧ .

وهؤلاء الذين أغواهم الشيطان هم الذين حقت عليهم الكلمة في قوله تعالى حكاية على لسان إبليس:{قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (١).

الموضع الثالث: على لسان الكافرين يوم القيامة:{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ} (٢).

والجديد في الآية الكريمة أن الإضلال جاء منسوباً إلى قرناء السوء من الجن والإنس، وهي تكشف عن مدى " الحنق العنيف، والتحرق على الانتقام على لسان المخدوعين (نجعلهما تحت أقدامنا " ليكونا من الأسفلين " في الدرك الأسفل من النار) من الذين زينوا لهم السوء بعد الموادّة والمخادنة والوسوسة والتزيين (٣)، وجاء الفعل (أضلانا) بطبيعة الماضي لأنه حديث يوم القيامة عما كان في الدنيا من قرناء السوء من الجن والإنس (٤).

الموضع الرابع:

يأتي على لسان الشيطان في التحدي لله عز وجل بأنه سيضل بني آدم في قوله تعالى:{إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً * إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً * لَعَنَهُ اللهُّ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً

(١) سورة ص: ٨٢ - ٨٣ .
(٢) سورة فصلت: ٢٩ .
(٣) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٦٠٨ .
(٤) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ٥ / ٣١٢٠ .

مَّفْرُوضاً * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِياًّ مِّن دُونِ اللّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً} (١).

والمعنى: " لأزيغنهم عن طاعتك وتوحيدك " (٢) فهل ينجح في ذلك؟ الواقع إنه لم ينجح إلا مع ضعفاء النفوس الذين اتخذوا الشيطان ولياً أما عباد الله المخلصون فلم يكن له عليهم سلطان واستخدم القرآن الكريم في التعبير عن هذا المعنى في هذا الموضع أسلوب الاستقبال (لأضلنهم) فهي نية مبيتة في نفس عدو الله وعدو الإنسان.

الموضع الخامس: يأتي في سياق حديث الله عن صنف من الناس يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان " متمرد متجرد للفساد مُعَرَّى من الخير " (٣)، في قوله تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} (٤).

هذا الصنف من الناس الذي يجادل في الله تعالى " سواء في وجوده تعالى أو في وحدانيته، أو في قدرته، أو في علمه، أو في صفة ما من صفاته...

جدال التطاول المجرد من الدليل، جدال الضلال الناشئ من أتباع الشيطان المريد العاتي المخالف للحق المتبجح، الذي من اتخذه ولياً

(١) سورة النساء: ١١٦ - ١١٩ .
(٢) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ١٣١ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٤ .
(٤) سورة الحج: ٣ - ٤ .

فإنه حتم مقدور أن يضله عن الهدى والصواب وأن يقوده إلى عذاب السعير " [١].

ولاحظ هنا استخدام المضارع " يضله " في جواب الشرط " من تولاه " في الحال التي يكون فيها المخدوع ولياً للشيطان فهو إضلال مؤقت طالما كان المخدوع تحت ولاية الخادع الماكر فإن رجع إلى صوابه وعاد إلى ربه وصار من عباده زالت سيطرة الشيطان عليه.

ويأتي الموضع الأخير من المواضع التي جاء الإضلال فيها منسوباً إلى الشيطان على لسان سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حين دخل مدينه من " بلاد القطر المصري " فوجد فيها رجلين يقتتلان " فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى " بيده المضمومة أصابعها في صدره وهو لا يريد قتله وإنما ليدفعه فمات " [٢].

قال تعالى:{وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} [٣].

والشاهد معنا في الآية قول سيدنا موسى على الشيطان: " إنه عدو مضل مبين " إنه وصف للشيطان وهو تقرير واقع واخبارته مما حدث من سيدنا موسى من وكزه للقرطبي تحت سيطرة الغضب على فرعون وكل من يمت له بصلة كان سبباً في تصرفه هذا

(١) راجع بتصرف: سيد قطب، في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٠٨ .
(٢) راجع الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٤٩١ .
(٣) سورة القصص: ١٥ .

التصرف الذي كان سبباً في قتل هذا المصري بدون قصد، فهذا العمل ليس من عمل موسى عليه السلام، ولكنه من عمل الشيطان العدو المضل المبين، وهذا الكلام على لسان سيدنا موسى عليه السلام إنما هو إعلان للتوبة بمجرد وقوع الفعل ".

وهكذا جاء أسلوب القرآن الكريم للتعبير عن إضلال الشيطان للإنسان متنوعاً حسب الزمان والمكان والموقف وحال المخاطبين، وكان في كل مرة متناسباً مع الزمان والمكان والموقف وحال المخاطبين.

فحين كان الموقف حواراً بين الله عز وجل وإبليس جاء بصيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال{وَلأُضِلَّنَّهُمْ} (١) بمعنى لأزيغنهم.

وحين كان الموقف في الدنيا بشأن المنافقين في عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) جاء الأسلوب بصيغة المضارع مقروناً بكلمة يريد{وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً} (٢) وليعم كل المنافقين في كل زمان ومكان، وكذا كل من يتخذ الشيطان ولياً من دون الله،{كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلاَّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ} ليس ذلك فقط{وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ} (٣).

(١) سورة النساء من الآية: ١١٩ .
(٢) سورة النساء بعض آية: ٦٠ .
(٣) سورة الحج: آية: ٤ .

وحين كان الموقف حكاية لحدث مضى وتصويراً له على لسان رسول الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وصفه بأنه{عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} [(١)]، بصيغة اسم الفاعل.

وحين كان الموقف في الآخرة جاء بصيغة الماضي حكاية لما حدث:{وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً} و{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ}.

وهكذا رأينا حديث القرآن الكريم عن إضلال الشيطان للإنسان يبدأ رغبة ملحة في نفس الشيطان ونزوعاً نفسياً في إضلال الإنسان وإفساد حياته وآخرته ليتحسرهما جميعاً، وتطورت هذه الرغبة حتى وصلت تبجحاً وتحدياً وتمرداً على الله عز وجل ووعداً أنه سيبذل قصارى جهده في إضلال بني آدم الذين فضلهم الله وكرمهم على كثير من خلقه، ويذكّر الله الإنسان في القرآن ألا يتولى إلا الله حتى يضيع على الشيطان مأربه في إضلاله وإفساده فيقول قضيت أنه من اتبع الشيطان فإنه يضله عن طريق الجنة ويهديه إلى طريق النار.

ويعاتب الله بني آدم في الخطاب الأخير في الدنيا لبني آدم ألا يطيعوا الشيطان فإنه عدو ظاهر العداوة وأن يطيعوا الله ويوحدوه، ويؤكد الكلام أن الشيطان قد أضل خلقاً كثيراً سبقوكم وأبلغتكم أخبار هلاكهم أفلا تعقلون.

(١) سورة القصص: بعض آية: ١٥ .

ويصل الإنذار الأخير من الله العلي القدير لبني آدم حين يطلعهم على حوار أهل النار في النار مع الواحد القهار طالبين منه أنه يريهم من كان سبباً في إضلالهم من الشياطين وبني آدم ليجعلوهما تحت أقدامهم في النار.

وهكذا وبتجميع الآيات القرآنية التي وردت في الحديث عن إضلال الشيطان للإنسان نجد أنه قد تحقق فيها ما يعرف بالوحدة الموضوعية حيث تكاملت الآيات في الحديث عن إضلال الشيطان للإنسان بدءاً من كونه رغبة ونزوعاً نفسياً في فكر الشيطان مروراً بأفاعيله مع بني آدم في الدنيا وانتهاء بمعرفة بني آدم الحقيقة واضحة جلية حين يعاينون مصير أولياء الشيطان وأتباعه الذين أضلهم شيطانهم وأهواؤهم.

* * *

٦ ـ الصّــــدّ

الصدود والصد: قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو{يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً}، وقد يكون صرفاً ومنعاً نحو:{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} (١).... إلى عير ذلك.

وجاء الصد في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان بالمعنى الثاني وهو الصرف والمنع عن في أربعة مواضع:

الموضع الأول: في صده عن ذكر الله عموماً وعن الصلاة خصوصاً في

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٢٧٩ .

قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} (١)، وجاء الصد بمعنى الإلهاء عن ذكر الله والتشويش في الصلاة " ذلك أن من اشتغل بشرب الخمر والقمار ألهاه ذلك عن ذكر الله وشوش عليه صلاته، كما فعل بأضياف عبد الرحمن بن عوف حين تقدم رجل ليصلي بهم صلاة المغرب بعدما شربوا فقرأ{قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ} بحذف (لا) (٢).

وفعل الخمر والميسر في " الصد عن ذكر الله وعن الصلاة لا يحتاجان إلى نظر.

فالخمر تنسي، والميسر يلهي، وغيبوبة الميسر لا تقل عن غيبوبة الخمر عند المقامرين، وعالم المقامر كعالم السكير لا يتعدى الموائد والقداح " (٣).

وهذا كله من أهداف الشيطان التي يريد تحقيقها فهو يريد أن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة بشرب الخمر ولعب الميسر، فهل ينجح في ذلك كله من إيقاع العداوة والصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟

(١) سورة المائدة: ٩١ .
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٢٣٤ .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢ / ٩٧٦ .

والواقع أنه لا ينجح إلا مع أتباعه وأوليائه، أما المؤمنون الصادقون فحين سمعوا قول الله عز وجل في تزييل الآيه:{فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}؟ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: انتهينا - انتهينا " [١].

وتبلغ عظمة أسلوب القرآن الكريم مداها حين يعلق إيقاع العداوة في الخمر والميسر والصد عن ذكر الله وعن الصلاة على إرادة الشيطان، فهو يريد ويتمنى وليس له أكثر من ذلك فهو ليس له سلطان على أحد من عباد الله إلا من خرجوا عن عبودية الله وصاروا أولياء الشيطان، فصاروا من شياطين الإنس.

* * *

٧ ـ الوسوسة والتعري

{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} [٢].

بادئ ذي بدء نقرر حقيقة مؤكدة بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هي " ضعف الإنسان في بعض جوانب تكوينه مما يمكن الشيطان من التأثير فيه وقيادته إلى الشر والارتكاس إلى الدرك الأسفل من حُطام شهواته، وفي أولها ضعفه تجاه حب البقاء، وضعفه تجاه حب الملك...

(١) المرجع السابق: ٩٧٦ .
(٢) سورة الأعراف: ١٩ - ٢١ .

وهو يكون في أشد حالات ضعفه وأدناها حين يبعد عن هدى الله، ويستسلم لهواه أو يستسلم لعدوه العنيد الذي أخذ على عاتقه إغواءه، في جهد ناصب، لا يكل أو يدع وسيلة من الوسائل " (١).

وكان من الوسائل التي استخدمها الشيطان لإغواء آدم وزوجه ولا يزال يستخدمها مع بني آدم وسوف يظل يستخدمها حتى يأتي أمر الله: الوسوسة، الإغراء بالبقاء، والملك، وهما الشهوتان اللتان يضعف الإنسان إزاءهما وهما أساس كل الشهوات المحببة إلى الإنسان المذكورة في سورة آل عمران (٢).

أما الوسوسة " فلا ندري نحن كيف تتم لأننا لا ندري كنه الشيطان، حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه، ولكننا نعلم - بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب - أن إغواء على الشر يقع في صورة من الصور، وإيحاءً بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات، وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقطة الضعف الفطرية في الإنسان، وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر، حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، وما يكون لكيده الضعيف حينئذ من تأثير " (٣).

---

(١) راجع: سيد قطب، في ظلال القرآن ٣ / ١٢٧٤ .

(٢) في قوله تعالى:{ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (آل عمران ١٤)

(٣) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٢٦٨ .

ونحن وإن كنا لا ندرك كيف تتم الوسوسة من الشيطان إلى الإنسان إلا أننا ندرك معنى الوسوسة في مدلولها اللغوي حين تكون من الشيطان وحين تكون من الإنسان، وحين تكون من النفس.

فاللغة تقول: " وسوس الشيطان إليه، وله، وفي صدره، وسوسة ووسواساً: حدثه بما لا نفع فيه ولا خير.

ويقال: وسوست له نفسه، ووسوس: تكلم بكلام خفي مخلط لم يبينه.

ووسوس: اعترته الوساوس، ووسوس: همس، ووسوس: صوت في خفاء " [(١)].

أي أن الوسوسة صوت خفي مهموس مخلّط غير واضح يُحدِّث به الشيطان الإنسان، مضمونه دائماً لا نفع فيه ولا خير.

" والوسوسة هي إغواء الشيطان.. وهي إغراء بارتكاب الشر، والذي يتحدث ويأمر بالخير لا يهمه أن يكون حديثه بصوت عال.. ولكن الحديث في الشر والغواية لا يتم إلا همساً بصوت خافت " [(٢)].

ويؤكد هذا الكلام الآية التي نحن بصدد الحديث عنها التي توضح هدف الشيطان من الوسوسة وهي إبداء سوآت آدم وحواء التي كانت مستورة عنهما قبل الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عنها.

وهنا تتضح لنا حقيقة مؤكدة بالقرآن والسنة والواقع المعاش، هي " حياء الإنسان السَّوي من التعرّي وانكشاف سوآته الجسدية والنفسية " والفطرة السليمة تنفر من انكشاف سوآتها الجسدية والنفسية

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز: ٦٦٩ وما بعدها .
(٢) محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ٤٨، أخبار اليوم - قطاع الثقافة .

وتحرص على سترها مدارتها... والعرى فطرة حيوانية، ولا يميل الإنسان إليها إلا وهو يرتكس إلى مرتبة أدنى من مرتبة الإنسان والذين يحاولون تعرية الجسم من اللباس، وتعرية النفس من التقوى ومن الحياء من الله ومن الناس والذين يعينون الناس على ذلك بما يوحون إليهم من زخرف القول بأن العري حضارة وفن وجمال هم أعوان الشيطان، إذ كان أول أهداف الشيطان من وسوسته إلى آدم وزوجه أن يبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما.

ويتضح في الآية مضمون الوسوسة الشيطانية وهو قوله:{مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ}.

وكأنه يداعب رغبة الإنسان في الملك أو الملائكية بناء على قراءة " ابن عباس ويحيى بن أبي كثير " إلا أن تكونا مِلكين " بكسر اللام، وقراءة الجمهور بفتحها " (١).

وقراءة " مِلكين " بكسر اللام يعضدها قوله تعالى في سورة " طه "{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى} (٢).

" وعلى هذه القراءة " بكسر اللام " يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد، وهما أقوى شهوتين في الإنسان بحيث يمكن أن يقال إن الشهوة الجنسية ذاتها إن هي إلا وسيلة لتحقيق شهوة الخلود بالامتداد في النسل جيلاً بعد جيل.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ٢٧٧ .
(٢) سورة طه: ١٢٠ .

وعلى القراءة " بفتح اللام " يكون الإغراء بالخلاص من قيود الجسد كالملائكة مع الخلود [١]... ولكلا القراءتين صلة بالمعنى فالإغراء بالملك الدنيوي له بريقه في ذهن آدم أبي البشر الذي علمه الله الأسماء كلها ذهن أبنائه وذريته من بعده الذين زينت لهم الحياة الدنيا وحب التملك فيها والإغراء بالملائكية محبب إلى آدم أبي البشر الذي رأى الملائكة ورأى النعيم الذي هم فيه؛ نعيم الطاعة والقرب من الله، كما أنه محبب إلى الصفوة من بنيه وذريته من بعده الذين صفت أرواحهم وطهرت قلوبهم فيتشبهون بالملائكة في صومهم وعبادتهم وطاعتهم لله.

" والشيطان كاذب فيما يقول... فلو كانت هذه شجرة الخلد فعلاً لأكل منها الشيطان نفسه وأصبح خالداً لا يموت ولكنه طلب من الله أن يبقيه إلى يوم القيامة... لأنه يعلم يقيناً أن الله هو خالق الحياة.. وأنه وحده هو الذي يبقيها أو يذهبها " [٢].

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم يتحدث عن الوسوسة إلى كل من آدم وحواء ولكن في موضع آخر نجد القرآن الكريم يتحدث عن الوسوسة إلى آدم وحده حيث يقول الله عز وجل:{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى * فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ

(١) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٢٦٩ .
(٢) محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ٥٢، أخبار اليوم - قطاع الثقافة .

فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [(١)].

ولا تعارض بين الآيات إذ المعقول أن الشيطان وسوس أولاً إلى آدم وحده، ثم وسوس إلى حواء، وبناءً على ذلك فإن القرآن الكريم حين يتحدث عن الوسوسة إلى آدم وحده يعرض صورة الوسوسة إليه أولاً، وفي الموضع الآخر الذي تحدث فيه أن الوسوسة كانت لكليهما إخبار بأن الشيطان وسوس إلى حواء أيضاً، بعد أن وسوس إلى آدم فتكون الوسوسة حدثت لكل منهما.

والوسوسة في الآيتين كانت بالإغراء بالخلود والملك، أي بالرغبة في البقاء، والرغبة في السلطان وهما نقطتا ضعف الإنسان، فعمره محدود، وقوته محدودة، ولذا فهو يطمح إلى عمر مديد، وقوة إضافية مستمدة من الشيطان.

والنتيجة التي ترتبت على أكلهما من الشجرة المحظورة عليهما ظهور عوراتهما الجسدية وإحساسهما بها.

والوسوسة من الشيطان كانت فيما سبق من الآيات إلى آدم أبي البشر وزوجه ولم تقف عندهما بل لا يزال الشيطان يواصل وسوسته بكل شر إلى بني آدم وسيظل حتى يأتي أمر الله، لذا يأمرنا الله عز وجل بالاستعاذة بالله الربّ، والملك، والإله من شره، ويصفه بأن الوسواس " الذي يوسوس كثيراً، أي يدس الشرور في النفوس ويغري عليها بطرق خفية " " الخناس " الذي من عادته أن يخنس ويختفي " [(٢)]،

(١) سورة طه: ١٢٠ - ١٢٢ .
(٢) عبد الجليل عيسى: المصحف المفسر ص ٨٢٧، هدية مجانية من مجلة صوت الأزهر

كلما ذكر المؤمن ربه كما جاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال:الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله خنس " (١).

وهذا يؤكد ضعف الشيطان وكيده، قال تعالى:{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} (٢).

وقد روى أنه " عثر بالنبي (صلي الله عليه وسلم) حماره، فقال رديفه، تعس الشيطان، فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت: تعس الشيطان تعاظم، وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت: باسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب وغلب " (٣).

وجاء الأمر بالاستعاذة بالله منه في سورة الناس:{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ} (٤).

ونلاحظ دقة التعبير القرآني إذ جعل وسوسة الشيطان في صدور الناس فقال تعالى:{الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} (٥)، ويعني بالصدور القلوب التي محلها الصدور.

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤ / ٧٥٠ .
(٢) سورة النساء: ٧٦ .
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤ / ٧٤٩، وقال تفرد به أحمد بإسناد قوي جيد .
(٤) سورة الناس كاملة .
(٥) سورة الناس: ٥ .

قال تعالى:{فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَتِي فِي الصُّدُورِ} [(١)].

" ووسوسته تكون خفية وسراً.. ونحن وإن كنا لا ندري كيف يتم ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة " [(٢)]، ورحمة من الله بعباده جعل لهم جُنَّةً ووقاية من كيد الشيطان ووسوسته بالاستعاذة بالله منه واللجوء إلى حصن الله الحصين، فإذا غفل الإنسان عن سلاحه فلا يلومن إلا نفسه.

ولا ينبغي أن نعظم شأن الشيطان ووسوسته فهو ضعيف هيّن لا سلطان له على المؤمنين، إنما سلطانه على ضعاف النفوس من أوليائه وأعوانه.

والحمد لله أولاً وآخراً إذ ردّ كيد الشيطان إلى الوسوسة ولم يتعدها إلى شيء آخر كما قال (صلي الله عليه وسلم) لمن جاءه " فقال: يا رسول الله إني لأحدث نفسي بالشيء لأن آخر من السماء أحب إليّ من أن أتكلم به.

فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) الله أكبر، الله أكبر، الحمد لله الذي ردّ كيده إلى الوسوسة " [(٣)].

* * *

(١) سورة الحج: ٤٦ .
(٢) سيد قطب في ظلال القرآن ٦ / ٤٠١١ .
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤ / ٧٥.

٨ ـ التزيين

" الزين في كلام العرب: " خلاف الشين... قال الأزهري: سمعت صبياً من بني عقيل يقول لآخر: وجهي زين " ووجهك شين؛ أراد أنه صبيح الوجه، وأن الآخر قبيحه.. والزينة اسم جامع لما تُزُيِّنَ به [(١)].

ويقال: " زيَّنَه: زانه يزينه زيناً: جمله وحسَّنه [(٢)]، أي أن التزيين هو التجميل والتحسين لما لا يكون جميلاً أو حسناً، أو الزيادة والمبالغة في تجميل وتحسين الشيء الجميل أو الحسن، لكن يبقى أن التزيين للشيء لا يرقى به إلى الوصول إلى الزين الأصلي الذي خلقه الله أي الفطرة، فضلاً عن أن التزيين يرجع إلى المُزيِّن ومهارته، وقد ورد التزيين في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان في خمسة مواضع توضح أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان وهو يزيّن للناس أعمالهم.

وجاء في موضع واحد منسوباً إلى الشركاء (١٣٧ الأنعام).

الموضع الأول في سورة الأنعام:

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [(٣)].

(١) ابن منظور، لسان العرب ٣ / ١٩٠٢، وما بعدها .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز .
(٣) سورة الأنعام: ٤٢ ـ ٤٣ .

يتحدث القرآن الكريم عن تزيين الشيطان أعمال الضالين من الأمم السابقة حين زين لهم القسوة والعناد، والكفر والضلال، والإعراض عن الله وعن دعائه والتضرع له والخضوع له في لحظات الشدّة حين أخذهم الله " بالبأساء من الفقر والضيق في العيش، والضرَّاء بالأمراض والأسقام والآلام لعلهم يتضرعون إلى الله ويدعونه ويخشعون له " [(١)]. في مثل هذه الأوقات العصيبة التي تلين فيها القلوب وتخشع وتخضع، ولكن الذي حدث منهم " هو قسوة قلوبهم وكفرهم وإصرارهم على المعاصي " وأعانهم على ذلك تزيين الشيطان لهم هذه الأعمال التي كانوا يعملونها، فالشيطان هنا كان دوره هو تزيين القبيح الذي كانوا يعملون، فهو لم يصنع الفعل " ولكنهم فعلوا الفعل وقام هو بتزيينه وتجميله وتحسينه لهم ليقطع عليهم خط الرجعة عنه، وليجعلهم يفعلونه باقتناع أنه هو الأحسن والأجمل والأفضل، فاللوم عليهم أولاً، والإثم عليهم يتحملون تبعته في الدنيا والآخرة.

الموضع الثاني للتزيين في سورة الأنفال، يقول الله عز وجل:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَّ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللهَّ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَّ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهَّ وَاللهَّ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا

(١) راجع ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٨١ .

تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ العِقَابِ} (١).

والآيات هنا تحث المؤمنين على الثبات حين يلقون الكافرين والتزود بالعدة الحقيقية للمعركة وهي ذكر الله، والأخذ بالأسباب المادية التي تصلهم بالله وتجنب أسباب الهزيمة من المعصية لله ورسوله والنزاع فيما بينهم، والتجرد من البطر والكبرياء والرياء، والاحتراز عن خداع الشيطان وتزيينه أعمال الكافرين.

" والنص القرآني هنا يثبت أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم، وشجعهم على الخروج يوم بدر بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم، وأنه بعد ذلك - لما تراءى الجمعان أي رأي أحدهما الآخر " نكص على عقبيه، وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله والله شديد العقاب " فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم، ولم يوف بعهده معهم..

ولكننا لا نعلم الكيفية التي زين لهم بها أعمالهم والتي قال لهم بها: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، والتي نكص بها كذلك، وقال ما قاله بعد ذلك الكيفية فقط هي التي لا نجزم بها، ذلك أن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء في أمره إلا في حدود النص، والنص هنا لا يثبت الكيفية وإنما يثبت الحادث " (٢).

---

(١) سورة الأنفال: ٤٥ - ٤٨ .
(٢) راجع: سيد قطب، في ظلال القرآن ٣ / ١٥٣١ .

وإنما نقف عند مدلول الكلمة في اللغة للتزيين بمعنى التجميل والتحسين والإغراء، وهنا جمَّل الشيطان للكافرين وحسّن لهم الخروج لقتال المسلمين يوم بدر، ولما رأى ما رأى من نصر الله للمؤمنين خذلهم ونكص على عقبيه، وتركهم يلاقون مصيرهم.

أما الموضع الثالث للتزيين من الشيطان ففي سورة النحل، يقول الله عز وجل:

{تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (١).

تأتي هذه الآية في سياق الآيات التي " تعرض صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتها، في تخصيص بعض ما رزقهم الله لآلهتهم المدَّعاة، في حين أنهم لا يردّون شيئاً مما يملكون على عبيدهم ولا يقاسمونهم إياه! وفي نسبة البنات إلى الله عز وجل على حين يكرهون ولادة البنات لهم:{وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ} في الوقت الذي يجعلون لله ما يكرهون تروح ألسنتهم تتشدق بأن لهم الحسنى، وأنهم سينالون على ما فعلوا خيراً! وهذه الأوهام التي ورثوها من المشركين قبلهم هي التي جاءهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليبين لهم الحقيقة فيها هدى ورحمة للمؤمنين " (٢).

وفي هذه الآية يقسم الله عز وجل بنفسه مستخدماً أداة القسم التاء وهذا الأسلوب في القسم أقل في الاستخدام من القسم بالباء، والواو، وربما تناسب هذا الأسلوب مع غرابة الموضوع المقسم عليه، وهو "

(١) سورة النحل: ٦٣ .

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢١٧٥ وما بعدها .

أن المشركين ليسوا أول من انحرف، وليسوا أول من جَدّف، فقد كان قبلهم منحرفون ومجدفون، أغواهم الشيطان، وزين لهم ما انحرفوا إليه من تصورات وأعمال، فصار وليّهم الذي يشرف عليهم ويصرّفهم "(١).

" وهنا تسلية للنبي (صلي الله عليه وسلم) بأن من تقدمه من الأنبياء قد كفر بهم قومهم.. وزين لهم الشيطان أعمالهم الخبيثة، فصار وليهم أي ناصرهم في الدنيا، وقرينهم في النار يوم القيامة ولهم عذاب أليم في الآخرة " (٢).

والشاهد هنا أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم الخبيثة التي أشار إليها السياق القرآني في الآيات السابقة التي تجسد صوراً من أوهام الوثنية وخرافاتها في تخصيص نعم الله عليهم لآلهتهم، ونسبته البنات التي يكرهون ولادتها - إلى الله عز وجل - هذه الأعمال زيّنها وحسّنها وجمّلها الشيطان لهم، فهو لم يقهرهم على فعلها، وإنما كان فعله هو التزيين، وهم لانطماس بصيرتهم فعلوها، وصار الشيطان بذلك وليهم وناصرهم في الدنيا، وسيكون قرينهم في النار في الآخرة ولهم عذاب أليم، والجديد الذي تضيفه هذه الآية من صفات الشيطان بعد التزيين أنه صار ولياً لأتباعه الذين أغواهم تزيينه الأعمال الخبيثة في حق الله عز وجل من تخصيص نعمه عليهم لآلهتهم التي خلقوها هم، ونسبة البنات المكروهة منهم إلى الله عز وجل.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢١٧٩ .
(٢) القرطبي: تفسير القرطبي: ١٠ / ٨١ .

أما الموضع الرابع للتزيين من الشيطان ففي سورة النمل ويأتي في سياق حديث الهدهد مع سليمان عليه السلام في قوله تعالى:

{وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ} (١).

وهذه اللقطة القرآنية من المشهد العام لسليمان عليه السلام وهو يتفقد جنوده في عرض عسكري بعد أن أتوا على وادي لنمل، ومقالة النملة، وتوجه سليمان لربه بالشكر والدعاء والإنابة، تأتي هذه اللقطة مع الهدهد حين افتقده نبي الله سليمان وتوعده ولكن الهدهد وهو يعلم حزم الملك وشدته فبدأ حديث الاعتذار عن غيابه بمفاجأة تغطي على موضوع غيبته وتضمن إصغاء الملك له فقال:{فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ}{وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}... ثم شرع في تفصيل النبأ اليقين فذكر أنه وجدهم تحكمهم امرأة أوتيت من كل شيء " من أسباب الحضارة والقوة والمتاع " ولها عرش عظيم " وذكر أنه وجد لملكة وقومها{يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ} ثم علل ضلال القوم بأن الشيطان زين لهم أعمالهم فأضلهم، فهم لا يهتدون إلى عبادة الله العليم الخبير " (٢).

(١) سورة النمل: ٢٠ - ٢٤ .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥ / ٢٦٣٨ .

والشاهد معنا هنا في هذه اللقطة يؤكد أن الشيطان زين لأهل سبأ عبادة الشمس من دون الله وصدهم عن عبادة الله العليم الخبير أي أن الشيطان كان دوره مع أهل سبأ أيضاً هو التزيين والصد ولم يكن له سلطان يقهر أحداً على فعل شيء أو تركه، حتى لا يأتي أحد ويعتذر أن الشيطان أجبره أو قهره أو تسلط عليه، فكلها أعذار لا أساس لها من الواقع في شيء.

أما المشهد الرابع من مشاهد التزيين من الشيطان للإنسان في القرآن فيأتي في سورة العنكبوت في قوله تعالى:

{وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} [١].

" وعاد " كانت تسكن بالأحقاف في جنوب الجزيرة بالقرب من " حضرموت " و " ثمود " كانت تسكن بالحجر في شمال الجزيرة بالقرب من وادي القرى، وقد هلكت " عاد " بريح صرصر عاتية، وهلكت ثمود بالصيحة المزلزلة وبقيت مساكنهما معروفة للعرب يمرون عليها في رحلتي الشتاء والصيف، ويشهدون آثار التدمير بعد العزّ والتمكين.

وتكشف الآية سر ضلالهم وضلال الآخرين وهلاكهم أجمعين،{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ}، فقد كانت لهم عقول، وكانت أمامهم دلائل الهدى، ولكن الشيطان استهواهم وزين لهم أعمالهم، وأتاهم من هذه الثغرة المكشوفة، وهي غرورهم بأنفسهم، وإعجابهم بما يأتون من الأعمال،

---

(١) سورة العنكبوت: ٣٨ .

وانخداعهم بما هم فيه من قوة ومال ومتاع،{فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ} سبيل الهدى الواحد المؤدي إلى الإيمان، وضيع عليهم الفرصة{وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ} يملكون التبصر، وفيهم مدارك ولهم عقول " [١].

وكما فعل الشيطان مع قوم سبأ زين لهم أعمالهم وصدهم عن عبادة الله العليم الخبير، كذلك فعل مع قوم عاد وقوم ثمود زين لهم أعمالهم وصدهم عن السبيل على الرغم من أنهم كان يملكون التبصر وفيهم مدارك ولهم عقول كذلك فعل مع الأمم السابقة زين لهم أعمالهم وصار وليهم، كذلك فعل مع أهل بدر من المشركين زين لهم أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، وهكذا دأب الشيطان مع الإنسان في كل زمان ومكان يزيّن العمل الخبيث فيراه العاصي الضال حسناً، فيفعله بإتقان كما يفعل الطابع العمل الحسن متقناً له، مقتنعاً بجدواه في الدنيا والآخرة له ولذريته.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥ / ٢٧٣٥ .

٩ ـ النَّزْغ

النزغ في كلام العرب معناه " أن تحمل بين قوم فتحمل بعضهم على بعض بفسادٍ بينهم، ونَزَغَ بينهم ينزغ وينزغ نزغاً: أغرى وأفسد وحمل بعضهم على بعض، والنزغ الكلام الذي يغري بين الناس.

ونزغه: حركه أدنى حركة، ونزغ الشيطان بينهم ينزغ وينزغ نزغاً أي أفسد وأغرى، وقوله تعالى:{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ} (١) نزغ الشيطان: وساوسه ونخسه في القلب بما يسوّل للإنسان من المعاصي، يعني يلقي في قلبه ما يفسده على أصحابه، وقال الزجاج: معناه إن نالك من الشيطان أدنى نزغ ووسوسة وتحريك يصرفك عن الاحتمال فاستعذ بالله من شره وامض على حكمك " (٢).

وهكذا فإن اللغة أثبتت النزغ منسوباً إلى الشيطان في كلام العرب بمعنى التحريش بين الناس بالإفساد والإغراء.

والوسوسة والنخس في القلب بما يفسد الإنسان على أصحابه، وجعلته أقل حركة، ومن الشيطان أدنى وسوسة وعلى ذلك فهو أول مداخل الشيطان على الإنسان وأهونها.

وقد ورد النزغ في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان في أربعة مواضع توضح أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان وهو ينزغ بين الناس.

(١) سورة الأعراف: ٢٠٠ .
(٢) ابن منظور: لسان العرب ٦ / ٤٣٩٧ .

الموضع الأول: قوله تعالى:{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (١).

وقد ورد في سبب نزول الآية أنه " لما نزل قوله تعالى لرسوله محمد (صلي الله عليه وسلم) :{خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ} (٢) قال عليه الصلاة والسلام: " كيف يا رب والغضب؟ فنزلت: " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم " (٣).

والحديث النبوي الشريف الذي ورد في سبب نزول الآية يثبت أن الغضب نزغ من الشيطان، ومدخل من مداخله على الإنسان يفسد عليه حياته وعلاقته بالناس والمعنى:{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ} حين يصيبنك ويعرض لك عند الغضب وسوسة بما لا يحل{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} أي اطلب النجاة من ذلك بالله، فأمر تعالى أن يدفع الوسوسة بالالتجاء إليه والاستعاذة به " (٤). " وهذا التعقيب{إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} يقرر أن الله سميع لجهل الجاهلين وسفاهتهم، عليم بما تحمله نفسك من أذاهم.. وفي هذا ترضية وتسرية للنفس.. فحبسها أن الجليل العظيم يسمع ويعلم إذ ماذا تبتغي نفس بعد ما يسمع الله ويعلم ما تلقى من السفاهة والجهل وهي تدعو إليه الجاهلين " (٥).

---

(١) سورة الأعراف: ٢٠٠ .

(٢) سورة الأعراف: ١٩٩ .

(٣) القرطبي: تفسير القرطبي: ٧ / ٢٠٠، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت لبنان .

(٤) القرطبي: تفسير القرطبي، ٧ / ٢٢١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٤١٩، دار الشروق ط / ١٢ .

هذا والسياق الذي جاءت فيه هذه الآية الكريمة هو التوجيه من الله إلى رسوله (صلي الله عليه وسلم) وأصحابه في مواجهة الجاهلية الفاحشة، والبشرية الضالة تدعو صاحب الدعوة (صلي الله عليه وسلم) إلى السماحة واليسر، والأمر فالواضح من الخير الذي تعرفه فطرة البشر في بساطتها، بغير تعقيد ولا تشديد، والإعراض عن الجاهلين، فلا يؤاخذهم، ولا يجادلهم.. فإذا تجاوزوا الحد وأثاروا غضبه بالعناد والصد، ونفخ الشيطان في هذا التعقيب فليستعذ بالله ليهدأ ويطمئن ويصبر " (١).

أما الموضع الثاني الذي جاء فيه النزغ منسوباً إلى الشيطان في القرآن الكريم فيأتي بنفس الأسلوب مع اختلاف في فاصلة الآية، ولكن في سياق قريب من مضمون السياق الذي جاءت فيه الآية التي كنا في رحابها من سورة الأعراف، وهو سياق طريقة الدعوة وخلق الداعية حيث يقول الله عز وجل:

{وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهَّ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (٢).

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٤١٨ .
(٢) سورة فصلت: ٣٣ - ٣٦ .

نرى ونسمع القرآن الكريم يرسم صورة الداعية إلى الله ويصف روحه ولفظه، وحديثه وأدبه، ويوجه إلى هذه الصورة رسوله (صلي الله عليه وسلم) وكل داعية من أمته [(١)] قائلاً: لا أحد أحسد قولاً، أي كلاماً وطريقة وحالة ممن دعا إلى الله بتعليم الجاهلين ووعظ الغافلين والمعرضين ومجادلة المبطلين... وعمل صالحاً، فجمع بين القول والعمل، وقال: إنني من المسلمين، المنقادين لأمر الله السالكين في طريقه ولا تستوي الحسنة ولا السيئة " أي لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها، فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً من له حق كبير عليك كالأقارب والأصحاب ونحوهم إساءة بالقول أو بالفعل فقابله بالإحسان إليه:{ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} فإذا قابلت الإساءة بالإحسان حصلت لك فائدة عظيمة{فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} كأنه قريب شفيق،{وَمَا يُلَقَّاهَا} أي وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة{إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا} أي صبروا نفوسهم على ما تكره وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان؟{وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} أي وما يوفق لهذه الخصلة إلا صاحب حظ عظيم من خصال الخير لأنها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة [(٢)].

---

(١) راجع: سيد قطب، في ظلال القرآن ٣ / ٣١٢١ .
(٢) راجع: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٤٩: ٧٥٠ .

هذا هو خلق الداعية مع أعداء الإنس، وتأتي الآية التالية توضح خلق الداعية مع أعداء الجنة حين يحاولون إخراجه عن صورته المثلى بالنزغ بينه وبين المدعوين، وتشويه صورته أمامهم، بأن يفعل شيئاً يسيراً على من يسره الله عليه، وهو أن يلجأ إلى الله ويعتصم به، والله يعلم صدقه وإخلاصه فسيحميه من نزغ الشيطان ومكره، فقال تعالى:{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}.

وقد لاحظنا تشابه الآيتين في ألفاظهما مع اختلاف يسير في نهاية الفاصلة في كل منهما فانتهت آية سورة الأعراف التي جاءت تعقيباً على المطلوب من رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في مواجهة الجاهلين في مكة بقوله تعالى:{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}، والاختلاف بين الآيتين في خبر إن حيث جاء مفرداً نكرة " سميع عليم " في سورة الأعراف ومعرفة جملة اسمية " إنه هو السميع العليم " في سورة فصلت، قال ابن جماعة: لأن آية الأعراف{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (١) نزلت أولا، وآية فصلت:{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ} (٢)، نزلت ثانياً فحسن التعريف أي هو السميع العليم الذي تقدم ذكره أولاً عند نزوغ الشيطان " (٣).

(١) سورة الأعراف: ٢٠٠ .
(٢) سورة فصلت: ٣٦ .
(٣) راجع: جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، ٢ / ١١٦، دار الندوة الجديدة - بيروت .

وتشابه الآيتين في ألفاظهما في الموضعين إشارة إلى قدم الصراع بين الشيطان والإنسان واستمراره، فالله يأمر رسوله (صلي الله عليه وسلم) أن يعتصم به ويستعيذ به من الشيطان الرجيم، ويأمر الدعاة إلى الله عموماً في كل مكان وزمان أن يلجأوا إلى الله إن أصابهم نزغ من الشيطان، وفي كلا الحالين " فإن الله سميع "، " لما يقولون " عليم " بنيتهم وضعفهم، والتجائهم إليه وسيحميهم من فتنة الشيطان ووسوسته " [١].

أما الموضع الثالث الذي جاء النزغ منسوباً إلى الشيطان فجاء في سورة يوسف في قوله تعالى:

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقاًّ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ} [٢].

النزغ هنا من الشيطان بمعنى الإفساد بين يوسف نبي الله عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وبين إخوته وقع " بإيقاع الحسد " [٣] " والبغض " [٤]

من إخوة يوسف حين رأوا مكانه من أبيه وحبه له{إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً

(١) راجع: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن ص ٣١٣ .
(٢) سورة يوسف آية: ١٠٠ .
(٣) القرطبي: تفسير القرطبي ٩ / ١٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت .
(٤) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٤٥٤ مكتبة المعارف .

صَالِحِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} (١).

ونسب يوسف عليه السلام الإفساد بينه وبين إخوته إلى الشيطان " وأحال ذنبهم على الشيطان تكرماً منه " (٢). حين " وسوس لهم بالشر "(٣)، ضده، وقال: " بيني وبين إخوتي " ولم يقل نزغ الشيطان إخوتي " بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين " (٤) وهو في الواقع حدث من إخوته لأبيه، ولكن هذا أدب الأنبياء والصالحين من عباده جاء على لسان يوسف عليه السلام في الآية الكريمة: " لئلا يذكر إخوته صنيعهم معه بعد عفوه عنهم بقوله{لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ}، وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية: ذكر الجفا في وقت الصفا جفا " وهو قول صحيح دلّ عليه الكتاب " (٥).

والشاهد هنا أن النزغ وقع من الشيطان بين يوسف عليه السلام وبين إخوته حين وسوس لهم بالشر ضده وأوقع الحسد والبغض في نفوسهم ضده، وهددوا بقتله أو نفيه، إلى أن خففوا الحكم بإلقائه في الجب، يلتقطه بعض السيارة، فيتحقق لهم إبعاد يوسف عن أبيه دون التورط في قتله، ويعود لهم أبوهم خالياً من حب يوسف، ولكن ذلك لم يكن..

---

(١) سورة يوسف: ٨ - ١٠ .
(٢) القرطبي: تفسير القرطبي ٩ / ١٧٥ .
(٣) عبد الجليل عيسى: المصحف المفسر ص ٣١٨ .
(٤) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٠٥ .
(٥) القرطبي - تفسير القرطبي ٩ / ١٧٥ .

أما الموضع الرابع الذي جاء فيه النزغ منسوباً إلى الشيطان فقد جاء في سورة الإسراء في قوله تعالى:

{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوّاً مُّبِيناً} (١).

الأمر من الله لرسوله (صلي الله عليه وسلم) أن يقول لعباده " المؤمنين فهم أحبابه ولم يقل " عبيدي " جمع عبد، بل قال " عبادي " جمع عابد، وفرق بين العبد، والعابد فكل عابد لله عبد لله، وليس كل عبد عابداً لله، وهؤلاء العباد هم المبشرون في قوله تعالى:{فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}، وهم المعصومون من الشيطان في قوله تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ}.

هنا يأمر الله تبارك وتعالى عبده ورسوله (صلي الله عليه وسلم) أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا إذن نزغ الشيطان... وأخرج الكلام إلى أفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة فهو عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم.

وأوضحت السنة النبوية مظهراً من مظاهر النزغ فيما يرويه أبوهريرة عن النبي (صلي الله عليه وسلم) قال: لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار " (٢).

(١) سورة الإسراء: ٥٣ .

(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي / ص ٤٦٠ .

وبعد،،

فإننا نلاحظ أن النزغ ورد في المواضع الأربع منسوباً إلى الشيطان وواقعاً منه على عباده المرسلين والمؤمنين على السواء، وكان الخلاص منه في بعض المواضع بالالتجاء إلى الله والاستعاذة به من الشيطان الرجيم، وفي بعضها بسدّ الباب على الشيطان بقول الكلام الحسن الطيب في محاوراتهم ومخاطباتهم حتى مع أعدائهم، وهكذا رسم لنا القرآن الكريم صورة من صور الإفساد من الشيطان بين الإخوة في النسب كما حدث بين يوسف وإخوته، وبين المرسلين والمرسل إليهم وبين الدعاة والمدعوين، وبين العباد المؤمنين عامة، وهي صورة النزغ بمعنى الإغراء والإفساد وتسويل المعاصي، والوساوس، والنخس في القلب.

* * *

١٠ ـ الإنْسَاء

اللغة تقو: النسيان، بكسر النون: ضد الذكر والحفظ، والنسيان: الترك، قال تعالى:{مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا}: أي نأمركم بتركها.

يقال: أنسيته أي أمرته بتركه، ونسيته: تركته.

والنسوة: الترك للعمل، وأنسانيه الله، ونسانيه بمعنى وتناساه: أرى من نفسه أنه نسيه (١).

ونسي الشيء نسيانا: تركه على ذهول وغفلة، أو تركه على عمد فهو ناس ونسّاء، وهي ناسية ونساءة، وأنساه الشيء جعله ينساه،

---

(١) لسان العرب: ابن منظور ٦ / ٤٤١٥ ـ ٤٤١٨، وانظر: مختار الصحاح: الرازي ص ٦٥٨، مؤسسة الرسالة ط ٧ سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م .

ونساه الشيء: أنساه، وتناسى الشيء حاول أن ينساه، أو تظاهر بأنه نسيه [١].

وهكذا يأتي النسيان في اللغة بمعنى الترك عمداً أو على ذهول وغفلة، ويأتي بمعنى عدم الحفظ وعدم التذكر.

وقد يكون النسيان بفعل فاعل يأمر الناسي فينسي، لكن هذا الأمر لا يقهر الناسي على النسيان، ومن هذا النوع إنساء الشيطان لابن آدم، فهو يأمر بالترك للشيء فيتركه عمداً أو على ذهول منه وغفلة، إتباعاً لأمر الشيطان.

وقد ورد الإنساء في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان في أربعة مواضع، كل موضع منها يرسم صورة واضحة المعالم لفعل الشيطان مع ابن آدم، سواء كان نبياً أو ولياً أو عبداً من عباد الله المؤمنين، بل إن هؤلاء هم المعنيٌّ بهم إبليس وأعوانه أكثر من اللاهين والغافلين.

هؤلاء اللاهون والغافلون هم المنافقون، فكما سنرى أن الشيطان تمكن منهم أيّ تمكن فقد استحوذ عليهم فأنساهم ذكر الله وضمهم إلى حزبه فصاروا أعوانا له، وكل هذا هم أدخلوه على أنفسهم.

وهاهي ذي مواضع إنساء الشيطان لابن آدم كما وردت في القرآن الكريم:

(١) المعجم الوجيز: ٦١٤ .

الموضع الأول في سورة الأنعام:

{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (١).

والخطاب في قوله تعالى:{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} للنبي (صلي الله عليه وسلم)، ويدخل معه المؤمنون، أمروا بالإعراض عن الذين يخوضون في آيات الله بالتكذيب والردّ والاستهزاء، وجعل القرآن الكريم حديث هؤلاء المكذبين والمستهزئين، كالخائض في لجج الماء لا يسلم من الغرق، وفيه دليل على عدم مجالسه أهل الخصومات والكبائر، ولو كان بهدف تصويب آرائهم.

{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} والخطاب هنا أيضاً للنبي (صلي الله عليه وسلم) ويدخل معه أمته أيضاً واختلف في جواز النسيان على النبي (صلي الله عليه وسلم)، وهو مردود بقوله (صلي الله عليه وسلم) : " نسي آدم فنسيت ذريته " وقوله (صلي الله عليه وسلم) أيضاً: " إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني ".

وشذت الباطنية وطائفة من أرباب علم القلوب فقالوا: لا يجوز النسيان عليه، وإنما ينسي قصداً ويتعمد صورة النسيان ليُسَنَّ... وهي منحى غير سديد (٢).

---

(١) سورة الأنعام: ٦٨ .

(٢) القرطبي: تفسير القرطبي ٧ / ١٠ - ٢٢ .

والذي يؤكد ما نعتقده من جواز النسيان على البشر جميعاً أن الآية الكريمة ختمت بهذا النهي:{فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ} أي فلا تقعد بعد التذكر مع القوم الظالمين أي المشركين، إذ لا يخوض في آيات الله بالتكذيب والرد والاستهزاء إلا هم ومن على شاكلتهم.

وشاهدنا في الآية الكريمة أن الإنساء كان من الشيطان للنبي وللمؤمنين.

الموضع الثاني: في سورة يوسف يقول الله عز وجل:

{وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} (١).

والضمير في قوله تعالى:{فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ} إما أن يعود إلى يوسف عليه السلام، أي أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل، وذلك أنه لما قال يوسف لساقي الملك حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالته الأولى مع الملك:{اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ}، نسي في ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق فعوقب باللبث.

وإما أن يعود إلى الناجي فهو الناسي والدليل على ذلك قوله تعالى:{قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ} (٢) فدل على أن الساقي هو الناسي لا يوسف، مع قوله تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ}(٣).

(١) سورة يوسف: ٤٢ .
(٢) سورة يوسف: ٤٥ .
(٣) سورة الحجر: ٤٢ .

فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان، وليس له على الأنبياء سلطنة؟!

وللإجابة عن هذا التساؤل، قيل: أما النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلغونه، فإنهم معصومون فيه " وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقاً، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم، قال رسول الله (صلي الله عليه وسلم) :(نسي آدم فنسيت ذريته) وقال (صلي الله عليه وسلم) : (إنما أنا بشر أنسى كما تنسون)[1].

وعلى كلٍ فإن الإنساء وقع من الشيطان على ابن آدم لينفذ قضاء الله عز وجل، وقد شاء الله عز وجل أن يعلم يوسف عليه السلام كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد، وكان هذا من اصطفائه وإكرامه.

إن عباد الله المخلصين ينبغي لهم أن يخلصوا له سبحانه، وأن يدعوا له وحده قيادهم، ويدعوا له وحده تنقية خطاهم، وحين يعجزون بضعفهم البشري في أول الأمر عن اختيار هذا السلوك، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه طاعة ورضا، وحباً وشوقاً.. فيتم عليهم فضله بهذا كله [2].

(١) القرطبي: ٩ / ١٢٨ وما بعدها .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ١٩٩٢ .

الموضع الثالث في سورة الكهف في قصة نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام والعبد الصالح الخضر عليه السلام:

قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً} (١).

وشاهدنا في قوله:{وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ} على لسان الفتى، والمعنى: وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وفيها دليل على " إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره " (٢).

والموضع الرابع في سورة المجادلة في الحديث عن المنافقين:

يقول الله عز وجل:{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (٣).

والمعنى أن الشيطان استولى على قلوبهم حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل، وكذلك يصنع الشيطان بمن استحوذ عليه (٤).

والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر: " أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ " الخالص للشيطان الذي يقف تحت لوائه ويعمل باسمه

(١) سورة الكهف: ٦٠ - ٦٣ .
(٢) عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٨٣ .
(٣) سورة المجادلة: ١٩ .
(٤) ابن كثير ٤ / ٤١٩ .

وينفذ غاياته، وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص:{أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ} (١).

وهكذا فإن الشيطان استولى على هؤلاء المنافقين وتمكن من قلوبهم، وأهم ما فعله بهم أن أنساهم تذكر الله عز وجل في كل أقوالهم وأفعالهم ولحظات حياتهم، ففسد القلب وتمحض للشر، فصاروا شراً كاملاً، في الأقوال والأفعال، بل صاروا حزب الشيطان، صاروا أعوان الشيطان يفعلون الشر باسمه ونيابة عنه.

وبنظرة متأملة في المواضع التي ذكر فيها الإنساء منسوباً للشيطان نجد أن الإنساء لم يقع من الشيطان على النبي الكريم (صلي الله عليه وسلم)، أو المؤمن عموماً في قوله تعالى:{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ}، وإنما وقع منسوباً إلى نبي الله يوسف عليه السلام، أو الساقي، أو منسوباً إلى فتى موسى عليه السلام، ومنسوباً إلى المنافقين، مع الاختلاف في الشيء المنسي، فالشيء المنسي في حق النبي (صلي الله عليه وسلم) أو المؤمن هو القعود مع الخائضين في آيات الله عز وجل، وهو لم يقع منهم صراحة، ولكن النهي جاء بصيغة المستقبل، فكأنه تحذير عن الشيء قبل وقوعه، أي أن الإنساء لم يقع، وفي هذا تكريم من الله عز وجل للنبي (صلي الله عليه وسلم) وأمته، وتحقيق لوعد الله عز وجل بحفظ عباده عنه أن يكون للشيطان عليهم سبيل في قوله تعالى:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ}.

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦ / ٣٥١٣ .

ولكن وقع الإنساء في حق نبي الله يوسف عليه السلام بشأن تذكر الله عز وجل واللجوء إليه والإغاثة به، والشكوى إليه، أو وقع في حق " الساقي " حين أنساه الشيطان طلب يوسف عليه السلام منه أن يذكره عند الملك.

وعلى كلا الرأيين فقد كان اللبث في السجن عقاباً لنبي الله يوسف عليه السلام لأنه لجأ إلى المخلوق واستعان به، وتعليماً له أن يقطع أسبابه بالخلق ويصلها فقط بالخالق سبحانه وتعالى.

والإنساء هنا في حق الساقي جاء بصيغة الماضي لأنه وقع فعلاً وكذا في حق فتى موسى عليه السلام، كان الإنساء بشأن تذكر مكان الحوت (الطعام) الذي سيأكلها، وجاء بصيغة الماضي، وأما في حق المنافقين فقد وقع عليهم الاستحواذ من الشيطان وكان ذلك سبباً في الإنساء وصاروا حزب الشيطان وعلى كلٍ فإن الذي حدث من الشيطان هو الإنساء دون قهر أو جبر أو إرغام، حتى لا يتعلل متعلل بأن الشيطان قهره على ترك أمر من أمور الشرع، أو فعل أمر نهى الله عنه، فإن حجم الشيطان يقف عند الإنساء، ويكون الإنساء وقت الغفلة والذهول أو الانصياع لأمر الشيطان بترك ما يفيد من أوامر الله عز وجل وفعل ما يضر مما نهى الله عز وجل عنه.

ونلاحظ تناسب العقوبة مع الجرم، فيوسف عليه السلام حين لجأ إلى المخلوق كان عقابه السجن لحكمة يعلمها الله عز وجل، أما المنافقون الذين استولى الشيطان على قلوبهم ففسدت فكان عقابهم أن صاروا شراً خالصاً، وصاروا أعواناً للشيطان، وخسروا خسراناً مبينا.

لكن فضل الله على النبي الكريم وأمته أن إذا أنسوا أن يتوبوا{وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ}.

* * *

١١ ـ التَّـبرِّي

أصل البُرء والبراء والتبري التقصي مما يكره محاورته [١].

وبرئ إذا تخلص، وتنزه وتباعد، وأعذر وأنذر.

والبريء: المتفصِّي من القبائح، والمتنحي عن الباطل والكذب، البعيد من التهم، النقي القلب من الشرك..

وتبرأت من كذا وأنا منه براء وخلاء.. " [٢].

وتبرأ من كذا: تخلص وتخلي عنه [٣]. أي أن اللغة تستعمل التبري بمعنى التخلص والتخلي والتنحي والبعد عن كل ما يشين.

وقد ورد التبري على لسان الشيطان في القرآن الكريم بلفظه في موضعين وورد بمعناه في موضع واحد.

أما الموضع الأول الذي ورد التبري على لسان الشيطان بلفظه فقد جاء في غزوة بدر الكبرى تبرأ من الكفار حين أطاعوه إذ زين لهم أعمالهم وأوردهم غمار الحرب فلما التقى الحق والباطل ولى مدبراً وتبرأ منهم يحكي القرآن هذا المشهد:

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَّ وَاللهَّ شَدِيدُ العِقَابِ} [٤].

---

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٥١، المكتبة التوفيقية .
(٢) ابن منظور: لسان العرب ١ / ٢٤٠ .
(٣) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤٢ .
(٤) سورة الأنفال: ٤٨ .

ذلك أن إبليس جاء قريشاً حين اجتمعت للحرب وترددت في الخروج حين تذكرت الذي بينها وبين بني بكر من الحرب، جاءهم إبليس في جند من الشياطين معه رايته في صورة سراقة بن مالك بن جشعم، وقال لهم: لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم أي مجير لكم من كنانة، فلما تراءت الفئتان أي التقى الجمعان رأى إبليس أثر الملائكة نزلوا في السماء وعلم أنه لا طاقة لهم بهم نكص على عقبيه، أي رجع القهقري وولى مدبراً، وكان في صورة سراقة بن مالك آخذ بيد الحارث بن هشام، فقال له الحارث: أفرار من غير قتال؟ فجعل يمسكه فدفع في صدره وانطلق وانهزم الناس، فلما قدموا مكة قالوا: هزم الناس سراقة، فبلغ ذلك سراقة، فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمت الناس، فوالله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم، فقالوا: أما أتيتنا في يوم كذا؟ فحلف لهم، فلما أسلموا علموا أن ذلك كان الشيطان [١].

وقال بلسان حاله أو في نفسه [٢]:{إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ} لأنه رأى جبريل عليه السلام معتجراً ببرد يمشي بين يدي النبي (صلي الله عليه وسلم) وفي يده اللجام يقود الفرس ما ركب بعد، وصدق في مقولته:{إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ}، وكذب في قوله:{إِنِّي أَخَافُ اللّهَ} ولكن علم أنه لا قوة به ولا منعة فأوردهم وأسلمهم، وذلك عادة عدو الله لمن أطاعه إذا التقى الحق والباطل أسلمهم وتبرأ منهم [٣].

(١) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٣٤٦ .
(٢) عبد الجليل عيسى: المصحف المفسر ص ٢٣٤ .
(٣) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٣٤٦ .

أما الموضع الثاني الذي جاء التبري على لسان الشيطان بلفظه فقد جاء حين ضرب الله مثلاً للمنافقين واليهود جميعاً في تخادعهم، فقال:

{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} (١).

والمعنى مثل المنافقين مع اليهود كمثل الشيطان ذلك أن المنافقين قالوا لليهود لئن أخرجتم من المدينة لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً ليسألنا خذلانكم أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم.. فضرب الله مثلاً لليهود والمنافقين جميعاً في تخادعهم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أي الشيطان وذلك الإنسان أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين (٢).

ولا تعنينا الكيفية التي قال بها الشيطان للإنسان اكفر، ولا التي قال بها إني بريء منك، ولا نجزم بها ذلك أن ذلك كله غيب ولا سبيل إلى الجزم بشيء منه إلا في حدود النص، والنص لا يثبت الكيفية ولكن يثبت الحادث (٣).

(١) سورة الحشر: ١٦، ١٧ .
(٢) البغوي: مختصر تفسر البغوي: ٢ / ٩٣٧ .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٣ / ١٥٣١ .

وهناك من يقرّب المعنى إلى المتلقي فيقول في قول الشيطان للإنسان اكفر يعني " حين يغري أي إنسان إغراءً شديداً كأنه ملك مطاع، وقوله إني بريء منك يعني " حدث نفسه بالتبري منه خوف أن يشاركه فيما يحل به [١].

والذي يعنينا هنا أن نثبت خداع الشيطان للإنسان وإغرائه في المحذور ووعده له بالنصرة، فإذا وثق الإنسان الغافل بوعد الشيطان وإغرائه ووقع في المحذور تبرأ الشيطان منه صراحة، ولكي يزيد الإنسان تحسراً على ثقته فيه يقول له كذباً وزوراً: إني أخاف الله رب العالمين، لكن الله عز وجل سيعاقبهما جميعاً، الخادع والمخدوع الشيطان والإنسان الغافل بالخلود في النار، وذلك جزاء الظالمين، الكافرين، المشركين، أو الظالمين عموماً أي ظلم أصغر من الكفر والشرك.

وأما الموضع الثالث الذي جاء التبري فيه على لسان الشيطان من الإنسان عموماً وهو التبري الأكبر فيكون يوم القيامة في قوله تعالى:

{وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَّ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [٢].

(١) عبد الجليل عيسى: المصحف المفسر: ٧٣٢ .
(٢) سورة إبراهيم: ٢٢ .

يأتي هذا المشهد يوم القيامة حين يخرج الناس من قبورهم إلى ساحة الحساب ويظهر الحق واضحاً جلياً، هنالك يتبرأ المتبوعون من الأتباع، يتبرأ الأقوياء من الضعفاء يتبرأ القادة مع الرعاع، ويتبرأ الشيطان من الجميع:{وَبَرَزُوا للهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ * وَقَالَ الشَّيْطَانُ.}.. " (١).

وهكذا رأينا الشيطان يتبرأ من الكفار والمشركين يوم بدر، ويتبرأ من المنافقين واليهود في المدينة المنورة، ويتبرأ من الجميع يوم القيامة، فلا يملك إلا أن نقول " الله الله! أما إن الشيطان حقاً لشيطان " (٢).

* * *

١٢ ـ الهَمْزُ

الهمز في كلام العرب يأتي بمعاني: الغمز، والدفع، والضرب والعيب.والهماز: العياب في الغيب. واللمَّاز: المغتاب بالحضرة، وهمز الشيطان الإنسان همزاً: همس في قلبه وسواساً.

وهمزات الشياطين: خطراته التي يخطرها بقلب الإنسان وفي حديث النبي (صلي الله عليه وسلم) أنه كان إذا استفتح الصلاة قال: اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفثه ونفخه! قيل: يا رسول الله،

(١) سورة إبراهيم: ٢١ - ٢٢ .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢٠٩٧ .

ما همزه ونفثه ونفخه؟ قال: أما همزه فالموتة (الجنون) وأما نفثه: فالشعر، وأما نفخه فالكبر [(١)].

وهذه المعاني كلها يفعلها الإنسان بهمز الشيطان له وغمزه ووسوسته له، وخطراته التي يلقيها بقلبه، وهمسه، لذا أمرنا الله عز وجل بالتعوذ من همزات الشياطين، فقال تعالى:{وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ} [(٢)]، بمعنى نزغات الشياطين الشاغلة عن ذكر الله تعالى، وبمعنى سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه... فالنزغات وسورات الغضب الواردة من الشيطان هي المتعوذ منها في الآية... والتعوذ أيضاً من الجنون وكيد، ومعنى أن يحضرون أي يكونوا معي في أموري، فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدّين للهمز، وإذا لم يكن حضور فلا همز، وفي صحيح مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله (صلي الله عليه وسلم) يقول: " إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه فإذا سقطت من أحدكم اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان، فإذا فرغ فليلعق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه البركة " [(٣)].

وما زلنا نؤكد أن الشيطان يهمز ويهمس ويوسوس وينزغ ولكن ليس له سلطان في الفعل أو الترك بيد أن الإنسان إن تعوذ بالله من

(١) ابن منظور: لسان العرب: ٦ / ٤٦٩٨ وما بعدها .
وانظر الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٥٢٣ .
وانظر: مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٦٥٢ .
(٢) سورة المؤمنون: ٩٧ .
(٣) القرطبي: تفسير القرطبي: ١٢ / ٩٩ .

همز الشيطان ولمزه ونفثه ونفخه أعيذ ونجا، وإن استرسل معه وقع في المحظور وهلك، نعوذ بالله من همزات الشياطين وأن يحضرون ونعوذ بالله من همز الشيطان ونفثه ونفخه.

ودفعاً لتوهم متوهم: كيف يستعيذ الرسول (صلي الله عليه وسلم) من همزات الشياطين وهو (صلي الله عليه وسلم) المعصوم منها؟ نقول: " واستعاذة الرسول (صلي الله عليه وسلم) من همزات الشياطين ودفعاتهم وهو معصوم منها - زيادة كذلك في التوقي، وزيادة في الالتجاء إلى الله، وتعليم لأمته، وهو قدوتها وأسوتها أن يتحصنوا بالله من همزات الشياطين في كل حين...

ويحتمل أن تكون الاستعاذة من حضورهم إياه ساعة الوفاة، ويرشح لهذا المعنى ما يتلوه في السياق:{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ.}.. " [١] على طريقة القرآن في تناسق المعاني وتداعيها " [٢].

* * *

(١) سورة المؤمنون: ٩٩ .

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٧٩ .

١٣ ـ الفتنة

أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال تعالى:{يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ}... أي عذابكم.

واستعمل في الاختبار نحو قوله تعالى:{وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً}.

وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً، قال تعالى:{وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْـخَيْرِ فِتْنَةً}.

والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون يفيد ذلك... (١).

ويقال فتنه: عذّبه ليحوّله عن رأيه أو دينه، وفتنه المال: استهواه، وتستعمل الفتنة بمعنى الاضطراب وبلبلة الأفكار، وبمعنى العذاب، وبمعنى الضلال.

والفتّان: الشيطان " (٢).

وقد جاءت الفتنة في القرآن الكريم منسوبة إلى الشيطان في موضع واحد في سورة الأعراف:

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ٣٧٣ وما بعدها .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤٦١ وما بعدها .

{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} (١).

وفسرت الفتنة في الآية الكريمة: بالصرف عن الدين (٢)، وبالإضلال (٣)، أي لا يصرفنكم الشيطان عن الدين ولا يضلنكم، وفي هذا " تحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة، أن يستسلموا للشيطان فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد فيسلمهم إلى الفتنة كما فعل مع أبويهم من قبل، إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما - فالعرى والتكشف الذي يزاولونه - والذي هو طابع كل جاهلية قديماً وحديثاً - هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية، وتنفيذ لخطة عدوهم العنيدة في إغراء آدم وبنيه، وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه، فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم وأن ينتصر في هذه المعركة، وأن يملأ جهنم منهم في نهاية المطاف (٤).

وتفسير الفتنة في الآية بالصرف عن الدين والإضلال يحمل كل المعاني التي أشرنا إليها سابقاً في بيان معنى الفتنة في اللغة، فالصرف عن الدين سبب كل ألوان العذاب في الدنيا والآخرة، والإضلال سبب في الاضطراب وبلبلة الأفكار، واتخاذ شرائع ومناهج وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(١) سورة الأعراف: ٢٧ .
(٢) القرطبي ٧ / ١٢٠ .
(٣) البغوي ١ / ٢٩٠ .
(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٢٧٩ .

والتحذير في الآية:{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ.}. " التحذير للبشر وليس للشيطان، فالله جل جلاله لم يقل للشيطان لا تفتن بني آدم.. ولو قال له ذلك لخرج الشيطان عن مهمته في الحياة.. ولأصبحت الحياة ليست دار اختبار كما أرادها الله سبحانه وتعالى.. تؤدي بخلقه المختارين إما إلى الجنة وإما إلى النار والعياذ بالله.

ولذلك فإن فتنة الشيطان هي من تمام ما أراده الله للحياة الدنيا، إن الله سبحانه يريدنا أن نعرف أن فتنة الشيطان تخرجنا من جنة التكليف التي تقودنا إلى جنة الخلود في الآخرة..

والنهي في قوله تعالى: " لا يفتننكم " على غرار النهي في قوله تعالى:{فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} كأن الله عز وجل يريد أن يلفتنا إلى أن الموت يأتي بغتة وفي أي لحظة، فلنكن على الإسلام دائماً حتى لا يفاجئنا الموت إلا ونحن مسلمون " وكذلك فتنة الشيطان ابتلاء واختبار فكونوا على حذر فإذا نجحنا في الاختيار فلن يحدث الفساد ولكن يحدث الفساد إن سقطنا في الفتنة، والفتنة ليست شراً ولا خيراً، بل هي اختبار يأتي لك بالخير إن نجحت أو بالشر إن سقطت فيه [١].

* * *

(١) راجع بتصرف: محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ٦٥ - ٦٨، مكتبة الشعراوي الإسلامية - أخبار اليوم - قطاع الثقافة .

١٤ ـ الرِّجــز

أصل الرجز الاضطراب.. رجز الشيطان: ما يدعو إليه من الكفر والبهتان والفساد " [١]، و " رجز الشيطان: وسوسته " [٢].وقد وردت كلمة الرجز مضافة إلى الشيطان في قوله تعالى:{إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} [٣]، وفسر الرجز بالوسوسة وإلقاء الشك في نفوس المسلمين ذلك أن المسلمين يوم بدر نزلوا على كثيب أعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ما بدر وأصبح المسلمون بعضهم محدثين وبعضهم مجنبين، وأصابهم الظمأ ووسوس إليهم الشيطان، وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم أولياء الله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عز وجل عليهم مطراً سال منه الوادي، فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا وسقوا الركاب، وملؤوا الأسقية وأطفأ الغبار، ولبَّد الأرض حتى تثبت عليها الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان، وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى:{وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ} من الأحداث والجنابة، و{وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ} وسوسته و{لِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} باليقين والصبر{وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ} حتى لا تسوخ في الرمل بتلبيد الأرض " [٤].

* * *

(١) الراغب: المفردات في غريب القرآن ص ١٩٤ .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٢٥٦ .
(٣) سورة الأنفال: ١١ .
(٤) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٣٣٣ .

١٥ ـ الرِّجْس

اللغة تقول: الرجس: القذر، والشيء القذر، والنجس، وقد يعبر به عن الحرام، والفعل القبيح، والعذاب واللعنة والعقاب، والغضب، والشك..

وقال الزجاج: الرجس في اللغة اسم لكل ما استقذر من عمل، فبالغ الله تعالى في ذم{الْخَمْرَ وَالْمَيْسِرَ وَالأَنصَابَ وَالأَزْلامَ} وسماها رجساً [١] في قوله تعالى:{إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}، " ورجس الشيطان: وسوسته " [٢].

والرجس يكون على أربعة أوجه: إما من حيث الطبع، وإما من جهة العقل، وإما من جهة الشرع، وإما من كل ذلك كالميتة، فإن الميتة تعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً.

والرجس من جهة الشرع الخمر والميسر، وقيل: إن ذلك رجس من جهة العقل وعلى ذلك نبه بقوله تعالى:{وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا}، لأن كل ما يوافي إثمه على نفعه فالعقل يقتضي تجنبه، وجعل الكافرين رجساً من حيث إن الشرك بالعقل أقبح الأشياء، قال تعالى:{وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ}، وقوله تعالى:{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ}، وقيل الرجس: النتن، وقيل: العذاب، وذلك كقوله تعالى:{إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ}، وقال تعالى:{أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ} وذلك من حيث الشرع.

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ٣ / ١٥٩٠ .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٢٥٦ .

وقيل: رجس ورجز للصوت الشديد، وبعير رجاس شديد الهدير، وغمام راجس ورجاس: شديد الرعد " [١].

وقد جاء الرجس في القرآن الكريم موصوفاً بأنه من عمل الشيطان في موضع واحد يتحدث عن الخمر وهي أم الخبائث والميسر وهو القمار، والأنصاب، وهي الأوثان، وسميت بذلك لأنهم كانوا ينصبونها، والأزلام وهي القداح التي يستقسمون بها، وصف الله عز وجل كل هذه الأشياء بأنها رجس أي خبيث مستقذر، من عمل الشيطان، أي من تزيينه، وطلب من المؤمنين اجتنابه فقال فاجتنبوه أي الرجس لعلكم تفلحون [٢]، فقال تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [٣].

وكلمة رجس في الآية الكريمة ينطبق عليها مفهوم النجس الخبيث المستقذر وصفاً للخمر، والفعل القبيح وصفاً للميسر وهو القمار والأنصاب وهي الأوثان، والأزلام وهي القداح وشرب الخمر، وكل ذلك من الأفعال القبيحة المحرمة يستحق فاعلها اللعنة والعذاب وجعل الله عز وجل فعل هذه الأشياء من عمل الشيطان ليس على الحقيقة، ولكن على أن الشيطان يوسوس بها ويزينها للإنسان فيفعلها فيستحق العقاب والغضب والعذاب.

* * *

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ١٩٤، وما بعدها .
(٢) راجع بتصرف: البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٢٣٤ .
(٣) سورة المائدة: ٩٠ .

١٦ ـ الأز

الأز والأزيز يأتي في كلام العرب بمعنى شدة غليان القدر، وجيشان الجوف وغليانه من البكاء، وإيقاد النار تحت الماء لتغلي، والالتهاب والحركة، وصوت الرعد من بعيد، وامتلاء المكان بالناس وكثرتهم وارتفاع أصواتهم والاختلاط، والتهييج والإغراء، والحث، والإزعاج إلى المعاصي، والإغراء بها، ويأتي الأز بمعنى الضم وبمعنى النكاح.. [(١)].

وقد جاء الأز بهذه المعاني في قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزاًّ} [(٢)].

والمعنى: خلينا الشياطين وإياهم ولم نعصمهم من القبول منهم أو قيضنا الشياطين على الكافرين{تَؤُزُّهُمْ أَزاًّ} تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية، أو تغريهم إغراءً بالبشر أو تغويهم إغواءً، أو تشليهم إشلاء [(٣)].

وهكذا فإن " الشياطين ليهيجون الكافرين إلى المعاصي، فهم مسلطون عليهم، مأذون لهم في إغوائهم منذ أن طلب إبليس إطلاق يده فيهم.. " [(٤)].

وانظر إلى ما توحيه كلمة الأز بمعانيها من شدة الحركة والاضطراب والغليان والالتهاب، والتهييج والإغراء والحث والإزعاج إلى المعاصي والإغراء بها، كل هذه المعاني تلقيها

(١) ابن منظور: لسان العرب ١ / ٧٢ وما بعدها .
(٢) سورة مريم: ٨٣ .
(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١١ / ١٠٠ .
(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٢٠ .

الشياطين في نفوس الكافرين ليقولوا في الإسلام وفي المسلمين، وفي نبي الإسلام وفي إتباعه من الصحابة والتابعين وأهل السنة ما يقولون والتعبير بالمضارع يوحي بأن هذه المعاني كانت من الشياطين وأتباعهم وما زالت وستظل حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، والله عز وجل يسلي رسوله (صلي الله عليه وسلم) ويسلّي كل مؤمن ويسري عنه قائلاً في الآيات التي تليها:

{فَلاَ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَداًّ * يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً * لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْداً} (١).

* * *

١٧ ـ [إرادة الإيقاع] [إيقاع العداوة والبغضاء]

الإيقاع يقال في الإسقاط وفي شن الحرب بالوقعة (٢).

يقال: أوقع فلان بالأعداء: بالغ في قتالهم، وأوقع بفلان ما يسوءه: أنزله به، وأوقع فلان الشيء: جعله يقع (٣).

وجاء هذا الفعل بهذه المعاني في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان في موضع واحد في قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} (٤).

وحديث القرآن الكريم عن فعل الشيطان هذا وهو إرادة إيقاع

(١) سورة مريم: ٨٤ ـ ٨٧ .
(٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٥٤٥ .
(٣) المعجم الوجيز: ٦٧٨ .
(٤) سورة المائدة: ٩١ .

العداوة بين بني آدم في الخمر والميسر يأتي ضمن حديثه عن تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وبيان أنها رجس من عمل الشيطان ودعوة المؤمنين إلى اجتنابها حتى يتحقق لهم الفلاح الذي يرجونه في قوله تعالى:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (١).

وتكشف الآية التالية لها وهي التي هنا:{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ} (٢).

تكشف الآية الكريمة عن هدف الشيطان وخطته وغاية كيده من وراء هذا الرجس المذكور في الآية السابقة وهو إرادة إيقاع العداوة والبغضاء في الصف المسلم في الخمر والميسر وصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة، وهذه الأهداف التي يريدها الشيطان أمور واقعة يستطيع المسلمون أن يروها في عالم الواقع بعد تصديقها من خلال القول الإلهي الصادق بذاته... فالخمر بما تفقد من الوعي وبما تثير من عرامة اللحم والدم، وبما تهيج من نزوات ودفعات، والميسر الذي بصاحبها وتصاحبه بما يتركه في النفوس من خسارات وأحقاد، إذ المقمور لابد أن يحقد على قامره الذي يستولى على ماله أمام عينيه، ويذهب به غانماً وصاحبه مقمور مقهور.. إن من طبيعته هذه الأمور أن تثير العداوة والبغضاء،

(١) سورة المائدة: ٩٠ .
(٢) سورة المائدة: ٩١ .

مهما جمعت بين القرناء في مجالات من العربدة والانطلاق الذين يخيل للنظرة السطحية أنهما أنس وسعادة! " [١].

ومازلنا ولا نزال نؤكد أن الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وحتى هذه العداوة والبغضاء التي نلمحها بين المخمورين والمقامرين يريدها الشيطان ويشاءها ويحبها وقد يحمل الإنسان عليها لكنه لا يستطيعها والذي دل على ذلك هو استخدام القرآن الكريم كلمة " يريد " محصورة بإنما في قوله تعالى:{إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ}، فهو لا تستطيع سوى الإرادة " بمعنى المشيئة وحب الشيء، وحمل الإنسان على الأمر [٢]، وتلك عظمة أسلوب القرآن الكريم.

* * *

١٨ ـ الكيد

الكيد: ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وممدوحاً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر.. ويكون بعض ذلك محموداً، قال تعالى:{كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ} [٣]، وقوله تعالى:{وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [٤].

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢ / ٩٧٦، دار الشروق .
(٢) المعجم الوجيز: ٢٨١ .
(٣) سورة يوسف: بعض آية: ٧٦ .
(٤) سورة الأعراف: ١٨٣، وسورة القلم: ٤٥ .

قال بعضهم: أراد بالكيد العذاب، والصحيح أنه هو الإملاء والإمهال المؤدي إلى العقاب، كقوله تعالى:{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ} (١)، فخص الخائنين تنبيهاً أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ككيد يوسف بأخيه (٢).

ولم يرد الكيد في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان إلا في موضع واحد في قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أُوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} (٣).

تأتي الآية الكريمة في سياق " تصوير القرآن لأحقية الغاية التي يجاهدها الذين آمنوا وقوة السند إلى جانب بطلان غاية الذين كفروا وضعف سندهم فيها " (٤).

فالغاية التي يجاهد في سبيلها المؤمنون هي تحقيق منهج الله وإقرار شريعته وإقامة العدل بين الناس باسم الله.. والسند الذي يستندون إليه هو ولاية الله وحمايته ورعايته.

والغاية التي يقاتل في سبيلها الكافرون هي الطاغوت لتحقيق مناهج شتى غير منهج الله.. مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم وشتى مناهجهم.. وكلهم أولياء الشيطان (٥).. ويأمرهم الله عز وجل المؤمنين أن يقاتلوا أولياء الشيطان مؤكداً أن كيد الشيطان

(١) سورة يوسف: ٥٢ .
(٢) الراغب الأصفهاني: مفردات القرآن ص ٤٤٥ .
(٣) سورة النساء: ٧٦ .
(٤) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٢ / ٧٠٣ .
(٥) راجع بتصرف سيد قطب في ظلال القرآن ٢ / ٧٠٩ .

كان ضعيفاً، أي مكره ومكر من اتبعه " [١]، والتاريخ يشهد أن الشيطان مكر لأتباعه يوم بدر وقال للمشركين:{لاَ غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَّ وَاللهُّ شَدِيدُ العِقَابِ} [٢]. ذلك أنه " لما رأى الملائكة خاف أن يأخذوه فهرب وخذلهم " [٣]، وهذا هو معنى قوله تعالى:{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} ولا يزال الواقع يشهد أن مكر الشيطان لأوليائه هين.

وتتضح عظمة الأسلوب القرآني حين يأمر الله عز وجل بقتال أولياء الشيطان الذين يمكر لهم شيطانهم، فهم أداته ووسيلته ولم يأمر بقتال الشيطان فهو لا يصنع سوى المكر والتدبير الخادع وحين يقع المحظور يولي دبره فاراً كما فعل يوم بدر ويفعل كل يوم مع أوليائه في شتى المعارك الحقيقية والعلمية والكلامية.

ولا أدل على ضعف مكر الشيطان أن الله عز وجل قال عنه:{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} [٤]، وقال عن كيد النسوة:{إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} [٥].

* * *

(١) القرطبي: الجامع ٥ / ١٨١ .
(٢) سورة الأنفال: ٤٨ .
(٣) البغوي: مختصر تفسير البغوي: ١ / ١٨٤ .
(٤) سورة النساء: ٧٦ .
(٥) سورة يوسف: ٢٨ .

١٩ـ الاستهواء

قال الله عز وجل:{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (١).

منذ أن صدع النبي (صلي الله عليه وسلم) بالدعوة إلى الله الواحد الأحد واعتنق الإسلام من شرح الله صدورهم له فهداهم إليه صراطاً مستقيماً منذ ذلك الحين والمشركون يجالدون المسلمين ليردوهم عن دينهم ويعيدوهم إلى عبادة الأوثان، " قال السدي: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل:{قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا} أي في الكفر " بعد إذ هداناَ الله " فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قومه على الطريق، فضلّ الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون ائتنا فإنا على الطريق،فأبى أن يأتيهم، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد (صلي الله عليه وسلم) ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام " (٢).

ونقف مع معنى الاستهواء في قوله تعالى: " استهوته الشياطين " فإن كان من هوى يهوى كان معناه هوت به وأذهبته، وإن كان من هوى يهوى كان معناه زينت له الشياطين هواه وعلى الرأيين يكون

(١) سورة الأنعام: ٧١ .
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٩٧ .

المعنى: ذهبت بعقله وهواه، أو استهامته وحيرته وزينت له هواه " (١)

واستهام بها.

ولفظ الاستهواء على هذا النحو يصور الحالة النفسية والمعنوية ويبرز الحيرة التي تنتاب من يشرك بعد التوحيد، ومن يتوزع قلبه بين الإله الواحد والآلهة المتعددين، ويتفرق إحساسه بين الهدى والضلال. والآية الكريمة تبرز صورة هذا المخلوق التعيس الذي استهوته الشياطين في الأرض.. وياليته يتبع هذا الاستهواء في اتجاهه، فتكون له راحة ذي القصد الموحد - ولو كان في طريق الضلال - ولكن هناك من الجانب الآخر إخوان له يدعونه إلى الهدى، وينادونه: " ائتنا " وهو بين هذا الاستهواء وهذا الدعاء " حيران " موزع القلب لا يدري أي الفريقين يجيب، ولا أي الطريقين يسلك، فهو قائم هناك شاخص متلفت " (٢). " وهذا مثل ضربه الله لكافر يقول: الكافر حيران، يدعوه المسلم إلى الهدى فلا يجيبه، ويتبع الشيطان الذي يغويه " (٣).نخلص من هذا أن الشيطان يستهوي الإنسان البعيد عن حظيرة الإيمان فيزين له هواه، ويحيره، ويميله عن الحق ويهوي به في مكان سحيق، أما المؤمن الواثق المطمئن بالله فليس للشيطان عليه سبيل.

* * *

(١) ابن منظور: لسان العرب ٦ / ٤٧٢٨ مادة " هوى " .
(٢) راجع: سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ص ٤٠ - ٤١، دار المعارف - الطبعة الثامنة .
(٣) محمد بن جرير الطبري:المصحف المفسر ص ١٣٦، دار الغد العربي .

٢٠ ـ التسويل والإملاء

يقول " سوَّل " له الشر حبَّبه إليه وسهَّله له وأغراه به [١].

والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن، قال الله تعالى:{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[٢] " [٣].

و " الإملاء: الإبقاء ملاوة من الدهر، أي برهة منه [٤].

يقال: أملى الله له، وأملى له في غيّه: أطال له وأمهله [٥].

وقد ورد هذان الفعلان منسوبين إلى الشيطان في القرآن الكريم في موضع واحد في قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ} [٦].

وتأتي هذه الآية في سياق تصوير موقف المنافقين من الجهاد، وتصوير حالهم وسبب توليهم عن الإيمان بعد إذ شارفوه، فيبين أنه تآمرهم مع اليهود ووعدهم له بالطاعة فيما يدبرون [٧]... والمعنى: إن الذين رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر والضلال من بعد ما تبين الهدى بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة الشيطان زين لهم ارتدادهم القبيح وصوره لهم بصورة حسنة، ومدَّ لهم في الأماني والآمال وأسباب الغواية والضلال على قراءة (أملى) بالبناء للمعلوم،

---

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٣٣٠ .
(٢) سورة يوسف: ١٨ .
(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٢٥٥ .
(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٦٤٨ .
(٥) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٥٩١ .
(٦) سورة محمد: ٢٥ .
(٧) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٧ .

وعلى قراءة (أُمْلي) بالبناء للمفعول يكون المعنى: أمهلوا ومُدَّ في أعمارهم " (١).

والتعبير القرآني يرسم معنى رجوع المنافقين عن الهدى من بعد ما تبين لهم في صورة حركة حسية، حركة الارتداد على الأدبار ويكشف ما وراءها من وسوسة الشيطان وتزيينه وإغرائه، فإذا ظاهر هذه الحركة وباطنها مكشوفان مفهومان، ثم يذكر القرآن الكريم السبب الذي جعل للشيطان هذا السلطان عليهم، وانتهى بهم إلى الارتداد على الأدبار من بعد ما عرفوا الهدى وتبينوه في قوله تعالى:{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ}، ذلك بأنهم - أي المنافقون - قالوا لليهود{سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الأَمْرِ} من الدسّ والكيد والتآمر على الإسلام ورسول الإسلام " والله يعلم إسرارهم " (٢) وهو تهديد ما بعده تهديد.

* * *

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٦٤٧ - ٦٤٨ .
(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٩٧ - ٣٢٩٨ .

٢١ ـ " الغوص " وأشياء أخرى خاصة بنبي الله سليمان عليه السلام

الغوص: الدخول تحت الماء وإخراج شيء منه ويقال لكل من تهجم على غامض فأخرجه غائص عيناً كان أو علماً.. والغواص الذي يكثر منه ذلك " (١).

وقد جاء هذا الفعل منسوباً إلى الشيطان في القرآن الكريم مرتين في قصة نبي الله سليمان عليه السلام وتسخير الجن له، قال تعالى:{وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ}(٢).

تأتي هذه الآية في سياق حديث القرآن الكريم عن نبي الله سليمان عليه السلام وما ابتلاه الله عز وجل من النعم فصبر عليها بعد الاستغفار من الفتنة واجتاز الامتحان في النهاية بسلام فكان شاكراً لنعمة الله، ومن هذه النعم تسخير الجن له عليه السلام، ومن الأعمال التي كان الجن يقومون بها أنهم كانوا{يَغُوصُونَ لَهُ} في البحار لاستخراج نفائسها (٣)، " ويأتون الأعمال الغريبة والأفعال البديعة، وليس استنباط الدر من البحار فقط (٤) " ويستخرجون له كنوزها المخبوءة (٥).

---

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص ٣٦٩ .
(٢) سورة الأنبياء: ٨٢ .
(٣) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٤٢٠ .
(٤) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص ٣٦٩ .
(٥) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٤ / ٢٣٩١ .

{وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ} دون الغوص وهو ما ذكره الله عز وجل في قوله تعالى:{يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}(١) " (٢).

وغير ذلك كما قال تعالى:{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ} (٣).

{وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ} أي أن الله يحرس سليمان عليه السلام أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو يحكم فيهم إن شاء أطلق وإن شاء حبس منهم من يشاء، ولهذا قال تعالى:{وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ} (٤) " (٥)، قال الزجاج: حفظناهم من أن يفسدوا ما عملوا (٦) وحفظهم الله عز وجل من أن يهربوا أو يفسدوا أو يخرجوا على طاعة نبي الله سليمان عليه السلام (٧).

وفي موضع آخر يتحدث القرآن الكريم عن الغوص بصيغة تدل على المبالغة من الجن في الغوص مضافاً إليه فعلاً آخر يفعلونه له وهو البناء بصيغة المبالغة أيضاً، قال تعالى:{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ}(٨)، وهكذا جاء التعبير القرآني عن تسخير الله الجن

---

(١) سورة سبأ: ١٣ .
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ٢ / ٥٩٦ .
(٣) سورة ص: ٣٧ .
(٤) سورة ص: ٣٨ .
(٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ٣ / ٢٥٠ .
(٦) البغوي: مختصر تفسير البغوي: ٢ / ٥٩٦ .
(٧) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٩١ .
(٨) سورة ص: ٣٧ .

لسليمان عليه السلام بشأن الغوص مرة بصيغة المضارع " يغوصون " الذي يفيد التجدد والحدوث وبصيغة المبالغة " غواص " الذي يفيد كثرة الفعل وتتابعه.

وهذا التسخير من الله عز وجل للجن لنبي الله سليمان عليه السلام خاصية له، ومعجزة من معجزاته عليه السلام لا ينبغي لأحد غيره أن يطلبها، أو يزاولها إن أمكنه الله عز وجل من أحد منهم، ولقد أمكن الله عز وجل رسوله محمداً (صلي الله عليه وسلم) من عفريت تَفلَّت عليه بالليل ليقطع عليه صلاته فأراد (صلي الله عليه وسلم) أن يربطه في عمود من أعمدة المسجد حتى يصبح الناس فينظروا إليه، لكنه (صلي الله عليه وسلم) تذكر كلمة أخيه نبي الله سليمان عليه السلام:{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي} (١)، فردّه (صلي الله عليه وسلم) خاسئاً.

روى البخار ي بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي (صلي الله عليه وسلم) قال: إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع عَلَيَّ الصلاة، فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم، فذكرت قول آخي سليمان:{رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي}، قال الراوي: فردَّه (صلي الله عليه وسلم) خاسئاً (٢).

* * *

(١) سورة ص: ٣٥ .

(٢) محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري ١ / ١٦١ - المكتبة العصرية - بيروت - الطبعة الثانية، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

٢٢ ـ الإلقاء [إلقاء الشبه والتخيلات الباطلة]

الإلقاء: طرح الشيء حيث تلقاه، أي تراه، ثم صار في التعارف اسماً لكل طرح، قال تعالى:{فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ}، وقال تعالى:{قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ} (١).

وقد جاءت مادة الإلقاء في القرآن الكريم منسوبة إلى الشيطان في موضع واحد في القرآن الكريم تكررت فيه كلمة الإلقاء ثلاث مرات، قال تعالى:

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}(٢).

والتمني: تقدير الشيء في النفس وتصويره فيها وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رويّة وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين صار الكذب له أملك، فأكثر التمني تصور ما لا حقيقة له...

والأمنية: الصورة الحاصلة في النفس من تمني الشيء، ولما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له وإيراده باللفظ وصار التمني كالمبدأ للكذب فصح أن يعبر عن الكذب بالتمني، وعلى ذلك ما روي عن عثمان - رضي الله عنه - ما تغنيت ولا تمنيت منذ أسلمت، وقوله

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص ٤٥٧ .
(٢) سورة الحج: ٥٢ ـ ٥٤ .

تعالى:{وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ}.

قال مجاهد: معناه إلا كذباً، وقال غيره: إلا تلاوة مجردة عن المعرفة من حيث إن التلاوة بلا معرفة المعنى تجري عند صاحبها مجرى أمنية تَمْنِيَتُها على التخمين، وقوله تعالى:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ} أي في تلاوته، فقد تقدم أن التمنّي كما يكون عن تخمين وظن فقد يكون عن رَوِيَّة وبناء على أصل، ولما كان النبي (صلي الله عليه وسلم) كثيراً ما كان يبادر إلى ما نزل به الروح الأمين على قلبه حتى قيل له:{وَلاَ تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً} [١] و{لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [٢]، سمى تلاواته على ذلك تمنياً ونبه على أن للشيطان تسلطاً على مثله في أمنيته، وذلك من حيث بين أن العجلة من الشيطان " [٣].

" وأطلق التمني على القراءة؛ لأن التالي يقدر الحروف ويتصورها في ذكرها شيئاً فشيئاً، والمعنى على ما ذكره العلامة الألوسي:{وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى} أي تلا على قومه الآيات المرسل بها للدعوة إلى التوحيد ونبه ما هم عليه من الشرك " ألقى الشيطان " شبهاً وتخيلات باطلة واحتمالات فاسدة " في أمنيته " في هذه الآيات المتلوة لإغوائهم وحملهم على مجادلته بالباطل.. وهذا كقولهم عند سماع آية{حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ} إن محمداً يحلّ ذبيحته نفسه ويحرم ذبيحة الله تعالى، وقولهم عند سماع

(١) سورة طه: ١١٤ .
(٢) سورة القيامة: ١٦، ١٧ .
(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٤٧٩ .

آية:{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} إن عيسى والملائكة عُبِدوا من دون الله، ونحو ذلك:{فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} أي يزيله من بعض القلوب بإنزال ما يبطله حتى لا يبقى فيه أثر للشك والزيغ فتؤمن بما جاء به الرسول:{ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ} يأتي بها محكمة مثبتة لا تقبل الرد فلا يتطرق إلى قلوبهم شك فيها:{وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، وذلك الإحكام{لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ} من تلك الشبه{فِتْنَةً} ابتلاء{لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ}، وهم المنافقون:{الْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ} وهم المجاهرون بالكفر من أهل العناد والجحود:{وَإِنَّ الظَّالِمِينَ} وهم هؤلاء جميعاً{لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} أي خلاف شديد ومشاقة تامة لله ولرسوله " [(١)](صلي الله عليه وسلم).

وعلى ذلك فإن التمني يحصل للنبي (صلي الله عليه وسلم) حين كان يبادر إلى ما نزل به جبريل على قلبه من القرآن الكريم فأمره ألا يعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليه وحيه، وألا يحرك لسانه بالقرآن تعجلاً لحفظه فإن الله عز وجل سيجمعه في قلبه ويعلمه قراءته، وحصل لكل الأنبياء من قبل، كما يحدث لكل قارئ على سبيل التجوز، أما صنيع الشيطان وهو إلقاء الشبه والتخيلات الباطلة فخاص بالمتلو عليهم من الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون، ومن المجاهرين بالكفر والعناد والجحود.

وتبرز دقة أسلوب القرآن الكريم في جعل صنيع الشيطان هو

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٤٣١ وما بعدها .

إلقاء الشبه والتخيلات الباطلة، أما تصديقها والإيمان بها فهو شأن المنافقين والمجاهرين بالكفر والعناد والجحود، أما المؤمنون الصادقون فإنهم دائماً يقولون:{سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ}.

* * *

٢٣ ـ الاستحواذ

الحوذ: السوق، يقال: حاذ يحوذها أي ساقها سوقاً عنيفاً، ومنه قوله تعالى:{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} استاقهم مستولياً عليهم (١)، ولم يرد هذا الفعل منسوباً إلى الشيطان في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع في سياق حديث القرآن الكريم عن المنافقين بدءاً من قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (٢)، إلى أن قال سبحانه وتعالى:{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ} (٣).

أي استولى عليهم وغلبهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه (٤).

والآية تأتي في سياق الحديث عن المنافقين الذين يتولون اليهود - في عصر النبي (صلي الله عليه وسلم)، وفي كل زمان ومكان - بعد أن يُصور القرآن بعض أحوالهم مواقفهم ويتوعدهم بافتضاح أمرهم وسوء مصيرهم وانتصار الدعوة الإسلامية وأصحابها على

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص ١٤٢ .
(٢) سورة المجادلة: ١٤ .
(٣) سورة المجادلة: ١٩ .
(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن: ص ٧١٠ .

الرغم من كل تدبيراتهم وتأتي هذه الآية{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ}..) نكشف عن علة حالهم هذه فقد استولى عليهم الشيطان كلية{فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ} أي تذكر الله والخوف منه والحياء منه، والرغبة إليه، والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر{أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} الخالص للشيطان الذي يقف تحت لوائه، ويعمل باسمه، وينفذ غاياته، وهو الشر الخالص الذي ينتهي إلى الخسران الخالص:{أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ}(١).

ونظرة متأملة في جمال الأسلوب القرآني في استخدام كلمة " استحوذ " بمعنى استاق واستولى من الحوذ وهو أن يتبع السائق حازي البعير أي أدباره وفخذيه فيعنف في سوقه.. " أي أن الأصل في الكلمة أنها خاصة بالحيوان فلا يستحوذ عليه إلا الحيوان ولا يُساق في عنف إلا الحيوان ولا يهان ولا يضام ولا يذل إلا الحيوان.. ثم أطلقت الكلمة على الاستيلاء عموماً.

واستخدام هذه الكلمة " استحوذ " بهذا المعنى فيه من التنفير من تولى غير المؤمنين، وتولى الشيطان وحزب الشيطان ما فيه (٢).

* * *

٢٤ ـ النجــوى

(١) راجع بتصرف: سيد قطب: في ظلال القرآن ٦ / ٣٥١٣ .
(٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ١٤٢،
والشيخ حسنين مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٧١٠ .

النجوى: إسرار الحديث، وتناجى القوم: تسارّوا " [١]، وناجيته ساررته، والاسم النجوى [٢]، وأصله أن تخلو به في نجوة [٣] من الأرض، وقيل: أصله من النجاة، وهو أن تعاونه على ما فيه خلاصه، أو أن تنجو بسرك من أن يطلع عليك " [٤].وجاء هذا الفعل في القرآن الكريم منسوباً إلى الشيطان مرة واحدة وهي قوله تعالى:{إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهَّ وَعَلَى اللهَّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [٥].وتأتي هذه الآية في سياق تقرير علمَ الله عز َوجل وشهوده كل شيء، وذلك برسم صورة حية من هذا الشهود تمس أوتار القلوب، أما المؤمنون فيطمئنون بحضور الله عز وجل وشهوده لأنه شهود وحضور عون ورعاية، وأما الكافرون والمنافقون فيحذرون من حضوره وشهوده لأنه حضور حرب ونكاية [٦]، تبدأ الصورة من قوله تعالى:{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّ اللهَّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [٧]، والمعنى ما يقع من تناجي ثلاثة، أي مسارتهم بالحديث بحيث لا يسمعه غيرهم إلا يعلمه الله تعالى كأنه حاضر معهم مشاهد لهم، كما يعلمه الرابع يكون معهم في التناجي... وخص الثلاثة والخمسة بالذكر؛ لأن قوماً من

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز: ص ٦٠٥ .
(٢) أحمد بن محمد علي الفيومي: المصباح المنير، ص ٣٥٣، دار الحديث .
(٣) النجوة: المكان المرتفع المنفصل بارتفاعه عما حوله .
(٤) الراغب الأصهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٤٨٦ .
(٥) سورة المجادلة: ١٠ .
(٦) سيد قطب: في ظلال القرآن: ٦: ٣٥٠٨ .
(٧) سورة المجادلة: ٧ .

المنافقين تحلقوا للتناجي فيما بينهم مغايظة للمؤمنين، وكانوا مرة ثلاثة ومرة خمسة، فنزلت الآية تعريضاً بالواقع [١]، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالمعنى عام لكل جماعة أكثر من اثنين، كما قال (صلي الله عليه وسلم): " إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه " رواه البخاري ومسلم. إلى أن تصل الصورة إلى تقرير أن هذا الفعل من الشيطان في الآية التي معنا:{إِنَّمَا النَّجْوَى} أي النجوى المعهودة منكم فيما بينكم ومع اليهود{مِنَ الشَّيْطَانِ} أي من تزيينه ووسوسته{لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا} أي ليوقعهم في الحزن بما يحصل لهم من توهم أنهم في نكبة أصابتهم{وَلَيْسَ} الشيطان أو التناجي{بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِّ} أي بقضائه وقدره " [٢].وفي الآية " وعد قاطع بأن الشيطان لَن يبلغ بهذه الوسيلة (النجوى) ما يريد في الجماعة المؤمنة؛ لأن الله حارسها وكالئها، وهو شاهد حاضر في كل مناجاة، وعالم بما يدور فيها من كيد ودس وتآمر، ولن يضر الشيطان المؤمنين{إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِّ} وهو استثناء تحفظي لتقرير طلاقة المشيئة في كل موطن منَ مواطن الوعد والجزم، لتبقى المشيئة حرة وراء الوعد والجزم،{وَعَلَى اللهِّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.. فأي طمأنينة بعد هذا أو يقين؟ [٣]

* * *

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٧٠٨ .
(٢) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٧٠٨ .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٦: ٣٥١١ .

الفصل الثالث

أسلوب القرآن في عرض صفات الشيطان وأعوانه

أولاً: صفات الشيطان في القرآن

١- الرجيم:

الرِّجام: الحجارة، والرجم: الرمي بالرّجام أي بالحجارة، يقال: رجم فهو مرجوم، قال تعالى:{لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} [١]. أي المقتولين أقبح قتله...

ويستعار الرجم للرمي بالظن والتوهم وللشتم والطرد نحو قوله تعالى:{رَجْماً بِالْغَيْبِ} [٢].. وقوله تعالى:{لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِياًّ}[٣]، أي لأقولن فيك ما تكره.

والشيطان الرجيم: المطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى، قال تعالى:{فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} [٤].، وقال تعالى:{فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} [٥]، وقال في الشهب:{رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ} [٦][٧].

وقد جاء هذا الوصف (الرجيم) بمعنى المطرود للشيطان في القرآن في ستة مواضع:

---

(١) سورة الشعراء: ١١٦ .
(٢) سورة الكهف: ٢٠ .
(٣) سورة مريم /٤٦ .
(٤) سورة النحل: ٩٨ .
(٥) سورة الحجر: ١٧ .
(٦) سورة الملك / ٥ .
(٧) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ١٩٦ - ١٩٧ .

الأول: جاء على لسان امرأة عمران بشأن السيدة مريم عليها السلام:{وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (١)، بمعنى " وإني أمنعها وأجيرها بك وأولادها من الشيطان الطريد اللعين، الرجيم المرمي بالشهب " (٢).

جاءت هذه الجملة على لسان امرأة عمران وهي " تودع هديتها (ابنتها) بين يدي ربها وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها من الشيطان الرجيم...

وهذه كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص، فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم! " (٣).

الموضع الثاني في سورة الحجر في حديث الله عز وجل عن السماء:{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ * وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ} (٤).

والمعنى: ولقد خلقنا وأبدعنا في السماء منازل وطرقاً تسير فيها الكواكب، وقيل: هي الكواكب نفسها، ومنعنا كل شيطان مرجوم مطرود عن الخير، من الرجم بمعنى اللعن والطرد، فإن من يطرد يرجم بالحجارة، منعناه من التعرض لها والوقوف على ما فيها في الجملة، أو من دخولها والاختلاط بأهلها (٥).

---

(١) سورة آل عمران: ٣٦ .
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ١١٧ .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن: ١ / ٣٩٣ .
(٤) سورة الحجر: ١٦ - ١٧ .
(٥) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٣٣٥ .

وشاهدنا وصف الله الشيطان بأنه رجيم بمعنى مرجوم أي مطرود عن الخير، ممنوع من دخول السماء والاختلاط بأهلها، والوقوف على ما فيها... ومن يحاول أن يسترق السمع من الشياطين لحقه وأدركه شهاب مبين يحول بينه وبين ما يريد.

الموضع الثالث والرابع يأتيان في سياق حوار الله مع إبليس أبي الجن حين يرفض إبليس السجود مع الملائكة سجود تحية وإعظام لآدم عليه السلام امتثالاً لأمر الله عز وجل للملائكة وإبليس معهم بالسجود لآدم، فكان جزاءه الطرد من الجنة، قال تعالى:{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} (١)، وجاءت هذه العبارة بلفظها مرتين تعقيباً على امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام، وجاء وصف الشيطان فيهما بأنه{رَجِيمٌ} بمعنى مرجوم أي " مطرود من الرحمة أو مرجوم بالشهب " (٢).

والموضع الخامس: يأتي في سياق حديث الله للمؤمن إذا أراد قراءة القرآن الكريم أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم{فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (٣) أي إذا أردت قراءة القرآن فاسأل الله أن يعيذك من وساوس الشيطان حتى لا يصرف قلبك عن التأمل فيه، ولا يلقى فيه الشبه والشكوك، ولا يزين لك الانصراف عنه " (٤).

(١) سورة الحجر: ٣٤، و سورة ص: ٧٧ .
(٢) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٣٣٧ .
(٣) سورة النحل: ٩٨ .
(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٣٥٥ .

ويأتي الموضع الأخير في سياق حديث الله عز وجل عن القرآن الكريم ينفي عنه أن يكون قول شيطان مسترق للسمع من الملأ الأعلى، فيقول تعالى: " وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ " (١)، " فالشيطان لا يوحي بهذا المنهج القويم " (٢).

وهكذا سجّل القرآن الكريم على الشيطان هذه الصفة (الرجيم) بمعنى المرجوم أي المطرود والمبعد من الملأ الأعلى المرمي بالشهب بدءاً من عصيانه أمر الله عز وجل للملائكة وهو معهم بالسجود لآدم عليه السلام سجود تحية وإعظام لا سجود عباده؛ لأنه المخلوق الذي خلقه الله بيديه، وأودع فيه سراً لم يودعه في أحد من مخلوقاته، فكان جزاؤه الطرد والإبعاد من الجنة، وظلت هذه الصفة تلاحقه على مر الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فجاءت على لسان امرأة عمران وهي تودع ابنتها (مريم) هدية لله رب العالمين وفاءً بنذرها فتدعو الله أن يحميها هي وذريتها من الشيطان الرجيم.

وتأتي على لسان كل من أراد قراءة القرآن الكريم مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم أن يوسوس له، أو يصرف قلبه عن التأمل في القرآن الذي يتلوه، أو يلقي الشبه والشكوك فيه، أو على الأقل يصرفه عن قراءته. وهذه الصفة (الرجيم) منعته من أن يقرب السماء أو يختلط بأهلها، أو يسترق السمع منها كما كان يفعل قبل نزول القرآن حتى لا يقول متقول إن القرآن من وحي الشيطان إلى النبي (صلي الله عليه وسلم).

---

(١) سورة التكوير: ٢٥ .
(٢) سيد قطب: في ظلا القرآن ٦ / ٣٨٤٣ .

٢ - المارد والمريد:

المارد والمريد من شياطين الجن والإنس هو المتعرِّي من الخيرات، من قولهم شجر أمرد، إذا تعرّى من الورق، ومنه قيل: رملة مرداء، لم تنبت شيئاً (١)....

وتعني كلمة المارد أيضاً: الطاغية، والعملاق، والمرتفع، كما تعني كلمة المريد: الشديد العتو، والخبيث المتمرد الشرير " (٢).

وجاءت كلمة " مارد " وصفاً للشيطان في القرآن الكريم مرة واحدة في سياق حديث الله عز وجل عن السماء وتزيينها وحفظها من الشياطين، قال تعالى:{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَوَاكِبِ * وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} (٣)، أي وحفظنا السماء حفظاً من كل شيطان متجرد عن الخير بخروجه عن طاعة الله (٤).

وجاءت كلمة: " مريد " وصفاً للشيطان في موضعين:

الموضع الأول: في سياق حديث الله عز وجل عن المشركين بالله وعبدة الأوثان من دون الله، فقال تعالى:{إِنَّ اللهَّ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهَّ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً * إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً} (٥)، أي ما يعبدون من دون الله إلا أصناماً سموها بأسماء الإناث، كاللات والعزّى ومناة،

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٤٦٨ .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٥٧٧ .
(٣) سورة الصافات: ٦ - ٧ .
(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٥٦٥ .
(٥) سورة النساء: ١١٦ - ١١٧ .

وكان لكل حي من أحياء العرب صنم يعبدونه ويسمونه أنثى بني فلان، ويزينونه بالحلي كالنساء، وما يعبدون بعبادة هذه الأصنام إلا شيطاناً عاتياً أغراهم بعبادته فأطاعوه، فكانوا له عابدين " [١].

وجاء الموضع الثاني: في سياق حديث الله عن صنف من الناس يجادل في الله بغير علم، فقال تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [٢]، والمعنى ومن الناس من ينازع ويخاصم من الجدال وهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، ويتبع كل شيطان متمرد متجرد للفساد معرى من الخير " [٣].

نزلت هذه الآية في النضر بن الحارث، وكان كثير الجدل، وكان يقول: الملائكة بنات الله، والقرآن أساطير الأولين، وكان ينكر البعث وإحياء من صار تراباً " [٤].

وحتى لا يظن ظانّ أن وصف الشيطان بهاتين الصفتين (" مارد " و " مريد ") يعطيه شيئاً من السلطان والسيطرة والتمكن من الإنسان فإن هاتين الصفتين بما تدلان عليه من التعرّي عن الخير، والطغيان، والعتو الشديد، والتمرد، والخبث، والشر الكثير، فإنها صفات في ذات الشيطان لا تتعداه إلى عباد الله الذين يتولون الله عز وجل بالعبادة فيتولاهم بالرعاية والحفظ بل هي كذلك لمن يتولون الشيطان والذين هم به مشركون، أما عباد الله فإن الله عز وجل يحميهم من كل شرور مردة الشياطين،

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ١٣١ .
(٢) سورة الحج: ٣ .
(٣) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٤٢٤ .
(٤) البغوي: مختصر تفسير البغوي ج ٢ / ٦٠٣ .

كما حمى السماء أن يقربها شيطان مارد عات في الموضع الأول{وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ} [(١)]. وأن هذا الشيطان المريد تسلّط على عبدة الأصنام في الموضع الثاني:{إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً} [(٢)].

وتسلّط على المجادلين في الله بغير علم:{وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ} [(٣)]، وصدق الله العظيم:{إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} [(٤)].

٣ - الملعــون:

اللعن: الطرد والإبعاد على سبيل السخط وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره..[(٥)] " يقال: " لعنه الله يلعنه لعناً: يطرده وأبعده من الخير، فهو ملعون.. واللعنة: العذاب " [(٦)].

وقد جاءت هذه الصفة موصوفاً بها الشيطان في القرآن في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: جاءت في صيغة الفعل الماضي (لعنه الله) وصفاً للشيطان المريد الذي أغرى المشركين بعبادة الأصنام في قوله

(١) سورة الصافات: ٧ .
(٢) سورة النساء: ١١٧ .
(٣) سورة الحج: ٣ .
(٤) سورة الحجر: ٤٢ - ٤٣ .
(٥) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٤٥٤ .
(٦) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٥٥٩ .

تعالى:{إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثاً وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً * لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً} (١) لعنه الله أي أبعده الله من رحمته(٢)، جزاءً وفاقاً على فعلته.

والموضعين الثاني والثالث: جاءا في صيغة (اللعنة، ولعنتي) وجاءا تعقيباً على امتناع إبليس عن السجود لآدم امتثالاً لأمر الله للملائكة وهو معهم وجاء الموضع الأول في قوله تعالى:{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ *وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (٣)، أي الإبعاد على سبيل السخط (٤).

والموضع الثاني في قوله تعالى:{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (٥)، وهو الطرد واللعنة والغضب جزاء التمرد والتجرد على أمر الله الكريم (٦).

ولو تتبعنا قائمة الملعونين في القرآن الكريم سنجد الشيطان على رأس القائمة والقائمة تضم: الشيطان، والكافرين، واليهود أصحاب السبت وناقضي الميثاق، وقاتل النفس المؤمنة متعمداً، والذين يؤذون الله ورسوله، وقاطعي الرحم، والذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، والذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات، والكافرين، والظالمين، والمفسدين في الأرض، والمنافقين والذين في قلوبهم مرض والمرجفين..

(١) سورة النساء: ١١٧ - ١١٨ .
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ١٩٦ .
(٣) سورة الحجر: ٣٤ - ٣٥ .
(٤) الشيخ حسنين مخلوف: صفوة البيان ص ٣٣٧ .
(٥) سورة ص: ٧٧ - ٧٨ .
(٦) سيد قطب: في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٢٨ .

وبنظرة متأملة في أحوال هؤلاء الملعونين الذين نعرفهم ونراهم ونسمعهم ونذوق الويلات منهم، وحالنا معهم هو البغض والنفور والاشمئزاز أفلا ينبغي لنا أن نفعل مع الشيطان رأس القائمة ما نفعل مع هؤلاء الملعونين؟ وكيف يرضى عاقل أن يطيع ويتبع من لعنه الله، وحقت عليه لعنة الله؟

٤ - العدو:

العدو: ذو العداوة، يقال: رجل عدو، وامرأة عدو، وعدوة، والجمع أعداء وأعاد، والعداوة: المعاداة، من عاداه معاداة وعداءً: خاصمه وكان عدوه (١).

والعدو ضربان: أحدهما: بقصد من المعادى نحو قوله تعالى:{فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ} (٢)، وقوله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ} (٣) وقوله تعالى:{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورا}(٤).

والثاني: لا بقصده بل تعرض له حالة يتأذى بها كما يتأذى مما يكون من العِدَى نحو قوله تعالى:{فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ} (٥)، وقوله تعالى في الأولاد:{إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} (١)(٢).

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤١٠ .
(٢) سورة النساء: ٩٢ .
(٣) سورة الفرقان: ٣١ .
(٤) سورة الأنعام: ١١٢ .
(٥) سورة الشعراء: ٧٧ .
(١) سورة التغابن: ١٤ .
(٢) الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٣٢٨ .

وعداوة الشيطان للإنسان من النوع الأول الذي هو بقصد من المعادى ذلك أن " إبليس " أبا الجن منذ أن لعنه الله وطرده من الجنة بسبب تكبره عن الامتثال لأمر الله له بالسجود مع الملائكة لآدم سجود تحية وإعظام وليس سجود عبادة، منذ هذه اللحظة أعلن الحرب على آدم وذريته،{قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (١)،{قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً} (٢){قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (٣).

ومنذ هذه اللحظة والعداوة قائمة بين آدم وذريته وإبليس وذريته، وأعلم الله آدم أن إبليس عدو له ولزوجه وحذره أن يكون سبباً في إخراجهما من الجنة فيشقى، فقال تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} (٤).

وأمر الله آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة وترك لهما حرية الأكل من حيث شاءا من ثمار الجنة إلا شجرة واحدة نهاهما أن يقرباها، وهنا مارس الشيطان أول أفعال العداوة وهي الوسوسة لآدم وزوجه، فأغراهما بالأكل من هذه الشجرة خاصة، فأكلا منها فلما ذاقا الشجرة ظهرت لهما عوراتهما وأخذا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترهما، وعاتبهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما

(١) سورة الحجر: ٣٩ - ٤٠ .
(٢) سورة الإسراء: ٦٢ .
(٣) سورة ص ٨٢: ٨٣ .
(٤) سورة طه: ١١٦ - ١١٧ .

الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين، قال تعالى:{وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (١).

ولعل المعنى والله أعلم: أنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلا وخلعا ثوب الطاعة وبدت منهما سوءة المعصية، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما يجتنان بها ويستتران وما لهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك، فلما سمعا النداء الرباني بتقريعهما ولومهما ألهما أن يتوبا إلى الله ويستغفرا من ذنبهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم، وقال لهما فقط أولهما وذريتهما، أولهما ولإبليس: اهبطوا من الجنة إلى الأرض، لينفذ ما أراده الله من استخلاف آدم وذريته في الأرض، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى، ومنازعة عدوّهم لهم فيها، والله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا، والله أعلم بأسرار كتابه " (١).

(١) سورة الأعراف: ١٩ - ٢٤ .

(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

ومنذ هبط آدم وزوجه وإبليس من الجنة والعداوة قائمة بين آدم وزوجه وذريتهما، وإبليس وأعوانه، ولكن الله لم يترك ذرية آدم للشيطان دون أن يحذرهم منه وتوضح عداوته لهم في كتبه وتشريعاته على ألسنة رسله التي جاءت كلها في القرآن الكريم تسجل ما حدث وما يحدث وما سيحدث إلى ما بعد نهاية الدنيا ودخول الطائعين الجنة وعيشهم أبداً فيها، ودخول العاصين النار وخلودهم فيها، فيقول الله عز وجل للناس أجمعين:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (١).

والمعنى يأيها الناس كلوا الحلال: المباح الذي انحلت عقدة الحظر عنه أو الذي لا يتعلق به حق الغير. الطيب: المستلذ، ولا تتبعوا آثار الشيطان وزلاته وطرقه التي يحرم بها الحلال ويحلل الحرام، إنه لكم عدو ظاهر العداوة إنما يأمركم بالسوء وهو ما يكره من الأمور والأحوال، ويُحزن، والمراد هنا كل ما يغضب الله تعالى من المعاصي لأنه يسوء صاحبه، والفحشاء أي ما عظم قبحه شرعاً من الأقوال والأفعال (٢)، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وهذا هو الموضع الأول، أما الموضع الثاني فحين يأمر الله المؤمنين خاصة بالدخول في الإسلام أجمعين وينهاهم عن اتباع آثار الشيطان التي يزين لهم بها المعاصي لأنه عدو ظاهر العداوة حين يزين لهم المعاصي فيرتكبونها فيميلوا ويضلوا عن شرع الله فيتعرضوا لغضبه وعقابه،

(١) سورة البقرة: ١٦٨ - ١٦٩ .
(٢) الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٣٩ .

فيقول:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(١).

يأمر الله المؤمنين أن يعملوا بجميع أحكام الإسلام وشرائعه، يحافظوا على فرائضه وإقامة حدوده وألا يتبعوا آثار الشيطان العدو الواضح العداوة التي يزين لهم بها المعاصي، فإن زلوا بأن مالوا وضلوا عن الحق فليعلموا أن الله عزيز في انتقامه لا يفوته هارب، ولا يغلبه غالب، حكيم في أحكامه، ونقضه وإبرامه (٢).

ومرة ثالثة وفي معرض حديثه عز وجل عما أحل من الطيبات وخاصة الأنعام، يقول الله عز وجل:{وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهَّ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (٣)، والمعنى: وأنشأ لكم من الأنعام حمولة وهي الكبار الصالحة للحمل، وفرشاً وهي صغارها الداعية من الأرض مثل الفرش المفروش عليها، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان بأن تسلكوا طرقه في التحليل والتحريم كأهل الجاهلية افتراء على الله (٤).

إنه لكم عدو ظاهر العداوة حين يزين لكم تحليل الحرام، وتحريم الحلال، الذي فيه ما فيه من الضرر الذي يلحق الأبدان والعقول، وهذا ما لا يأمر به ولا يزينه إلا عدو ظاهر العداوة.

---

(١) سورة البقرة: ٢٠٨ - ٢٠٩ .
(٢) الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٤٩ .
(٣) سورة الأنعام: ١٤٢ .
(٤) الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ١٩٣ .

هذا وليست عداوة الشيطان بعيدة عن الأنبياء، فهذا يوسف عليه السلام يتعرض للكيد من إخوته لإهلاكه، فيحصل الضرر ليوسف عليه السلام وإخوته، وهذا ما لا يأمر به ألا عدو ظاهر العداوة أيضاً، قال تعالى:{إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (١).

وفي موضع رابع: يوضح الله عداوة الشيطان للإنسان حين يفسد بينه وبين أخيه الإنسان مسلماً أو غير مسلم ويهيج الشر بينهم حين يقول:{وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُواً مُّبِيناً} (٢).

فيأمر الله عباده المؤمنين أن يقولوا عند محاورة المشركين الكلمة التي هي أحسن وأقرب إلى استمالتهم للإيمان، حتى لا يلجوا في العناد، وهو كقوله تعالى:{وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (٣)، كأن يقولوا لهم:{رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ} (٤)، إن الشيطان يفسد ويهيج الشر بينهم (٥).

كما يأمر الله تعالى عبده ورسوله (صلي الله عليه وسلم) أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم،

(١) سورة يوسف: ٤ - ٥ .
(٢) سورة الإسراء: ٥٣ .
(٣) سورة العنكبوت: ٤٦ .
(٤) سورة الإسراء: ٥٤ .
(٥) الشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٣٦٦ .

وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم وعداوته ظاهرة بينه [1] ولا يفسد بين الإنسان وأخيه الإنسان فضلاً عن أخيه المسلم إلا عدو ظاهر العداوة.

والتعبير بكان هنا في قوله تعالى:{إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُواً مُّبِيناً} لا تعني الزمن الماضي فقط بل تعني كان ولا يزال، تعني الماضي والحاضر والمستقبل، وهذا ما تؤكد الآيات التي عرضت عداوة الشيطان للإنسان منذ امتنع عن السجود لآدم مع الملائكة والآيات التي نعرض لها الآن التي تتحدث عن عداوة الشيطان وذريته بعد أن هبطوا جميعاً إلى الأرض.

وفي موضع خامس: يعرض الله عداوة إبليس وذريته لآدم وذريته حين سولوا لهم أن يتخذوهم أولياء من دون الله، وهم العدو، وهم بهذا الفعل يصيبون ذرية آدم الذين اتخذوهم أولياء من دون الله في مقتل، وهذا ما لا يفعله إلا عدو، قال تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} [2].

وفي موضع سادس: وعلى لسان موسى عليه السلام يقرر عداوة الشيطان وإضلاله الواضح وذلك حين دخل مصر أو بلد آخر من القطر المصري فوجد فيها رجلين يتخاصمان ويتضاربان أحدهما من بني إسرائيل والآخر من القبط فاستغاث الإسرائيلي بموسى على الذي من القبط فضرب موسى القبطي بيده مضمومة أصابعها في

(١) ابن كثير: ٣ / ٦٥ .
(٢) سورة الكهف: ٥٠ .

صدره وهو لا يريد فتكه فكانت فيها نفسه أي مات لشدة الضربة وقوة موسى عليه السلام، فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، وقال هذا من تزيين الشيطان ووسوسته وما حدث مني إنما كان بسبب عداوته البينه وحرصه على الإضلال (١)، قال تعالى:{وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ} (٢).

وفي موضع سابع: يؤكد الله عداوة الشيطان للإنسان حين يدعوه ليعمل بعمل يكون سبباً في إدخاله نار السعير فيقول تعالى:{إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (٣).

وفي موضع ثامن: ينتقل بنا القرآن الكريم إلى حديث الله إلى بني آدم في الآخرة وتوبيخه لهم على طاعتهم للشيطان على الرغم من عداوته لهم، ومعصيتهم لله عز وجل، فيقول: " ألم أوصكم يا بني آدم على ألسنة رسلي ألا تطيعوا الشيطان إنه عدو لكم ظاهر العداوة حين يأمركم بطاعته من دون الله ومخالفة أوامر الله ونواهيه، فكانت النتيجة أن أضل منكم خلقاً كثيراً، أفلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح ما فعلتم ذلك (١)، فقال تعالى:{أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا

(١) راجع عبد الرحمن بن ناص السعدي: تيسير الكريم الرحمن ص ٦١٣، والشيخ حسنين محمد مخلوف ص ٤٩١ .

(٢) سورة القصص: ١٥ .

(٣) سورة فاطر: ٦ .

(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٦٩٨ .

بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} (١).

وفي موضع تاسع: يقرر الله عداوة الشيطان لأهل مكة حين صدهم عن عبادة الله عز وجل وجعلهم يضجون ويصيحون فرحاً حين قال عبد الله بن الزبعري قبل إسلامه للنبي (صلي الله عليه وسلم) حين سمعه يقرأ:{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} (٢).

أليست النصارى يعبدون المسيح، وأنت تقول كان نبياً! فإن كان في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه؟ وهذا الكلام ما قالوه إلا لأجل الجدل والغلبة في القول بالباطل لا لطلب الحق بل هم قوم شداد الخصومة مجبولون على اللجاج في الباطل، فالحق أن عيسى عليه السلام ما هو إلا عبد أنعم الله عليه وجعله كالمثل في غرابته حين خلقه الله من غير أب دليلاً على كمال قدرة الله، القادر على بعث الموتى من قبورهم أيضاً، وسيكون عيسى عليه السلام أمارة من أعظم أمارات الساعة حين ينزل من السماء في آخر الزمان، فلا تشكن في قيامها وامتثلوا لأوامر الله واجتنبوا نواهيه، ولا يصدنكم الشيطان عما أمركم الله به فإن الشيطان لكم عدو حريص على إغوائكم باذل جهده في ذلك (١). ولا يفعل هذا إلا عدو ظاهر العداوة.

(١) سورة يس: ٦٠ - ٦٢ .
(٢) سورة الأنبياء: ٩٨ .
(١) عبد الرحمن بن ناصر السعدي ص ٧٦٨، والشيخ حسنين مخلوف ص ٦٢٦ .

حكى القرآن الكريم هذا المشهد في قوله تعالى:{وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ * وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلاَ يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} (١).

وهكذا فإن عداوة الشيطان للإنسان بدأت منذ أبى الشيطان واستكبر أن يسجد لآدم عليه السلام مع الملائكة في الجنة، وظلت هذه العداوة بينهما وذريتهما، وتمثلت في تحريم الحلال وتحليل الحرام في المأكول والمشروب والمركوب، والملبوس، وذلك فيه ما فيه من الضرر بالأبدان والعقول.

كما تمثلت العداوة في الإفساد وتهييج الشر بين المسلمين وغيرهم، بل وبين المسلمين والمسلمين.

كما تمثلت العداوة في تزيين المعاصي للمؤمنين فيميلوا ويضلوا عن شرع الله فيتعرضوا لغضبه وعقابه.

ولم يسلم من هذه العداوة نبي ولا رسول، فأوقع الشيطان ونزغ بين يوسف وإخوته، وزين لموسى عليه السلام نصرة الإسرائيلي على القبطي وستظل هذه العداوة حتى يوبخ الله بعض بني آدم يوم القيامة على طاعتهم للشيطان من دون الله.

---

(١) سورة الزخرف: ٥٧ - ٦٢ .

وهكذا يتأكد أن العداوة بين الشيطان والإنسان كانت ولا تزال وستظل فهل وعينا الدرس، وعرفنا عدونا فاتخذناه وأعوانه عدواً؟ أرجو ذلك وأدعو الله أن يحققه، اللهم آمين.

٥ - الغـرور:

الغرور: كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين، وبالدنيا لما قيل الدنيا تغر وتضر وتمر [(١)].

والغرور بمعنى الخداع، يقال: غر فلانا يغر غروراً: خدعه وأطمعه بالباطل.

ويقال: غره الشيطان، وغرته الدنيا فهي غرور [(٢)].

وقد جاءت هذه الصفة (الغرور) موصوفاً بها الشيطان في ثلاثة مواضع:

الأول: في معرض حديث الله إلى الناس كافة فهم عبيده يأمرهم بتقوى الله، والخوف من يوم لا يقضي والد عن ولده ولا مولد عن والده ويحذرهم أن تخدعهم الحياة الدنيا أو أن يخدعهم بالله الشيطان أو المال أو الجاه... فيقول تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الغَرُورُ} [(١)].

(١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٣٦١ .
(٢) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤٤٨ .
(١) سورة لقمان: ٣٣ .

الثاني: في خطاب الله للناس عامة يعلمهم أن وعد الله حق ويحذرهم خداع الدنيا والشيطان، فيقول تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ} (١)، والمعنى لا تخَدعنكم ولا تلهينكم الحياة الدنيا " ولا يغَرنكم بالله " بسبب حلمه وإمهاله " الغرور " المبالغ في الغرور والخداع وهو الشيطان بما يمنيكم من الأماني الكاذبة.

الثالث: في مشهد من مشاهد القيامة يحكي حسرة المنافقين حين يرون العذاب فيقول المنافقون للمؤمنين انتظرونا لنلحق بكم نُصِبْ شيئاً من نوركم نستضيء به، فضرب بينهم بحاجز له باب... حينذاك ينادي المنافقون المؤمنين ألم نكن معكم فيرد المؤمنون بلى ولكنكم أهلتكم أنفسهم بالنفاق وانتظرتم بالمؤمنين الحوادث المهلكة، وخدعتكم أطماعكم الفارغة الكاذبة فصدتكم عن سبيل الله وأضلتكم وخدعكم الشيطان بسبب سعة رحمة الله تعالى فأطمعكم في النجاة من العقوبة بنحو قوله: إن الله عفو كريم لا يعذبكم، وإن الله محسن وحليم، ولا يزال الشيطان بالإنسان يغره حتى يوقعه في الهلكة (١)، قال تعالى:{يَوْمَ تَرَى المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ اليَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ

(١) سورة فاطر: ٥ .
(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٧٠٢ .

وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ المَصِيرُ} [(١)].

ونظرة متأملة في المواضع الثلاثة التي جاء فيها وصف الشيطان بالغرور نجد موضعين منهما يتحدث الله عز وجل إلى الناس كل الناس عربهم وعجمهم، مؤمنهم وكافرهم في الدنيا، أما الموضع الثالث فيجيء الخطاب فيه للمؤمنين خاصة في شخص النبي (صلي الله عليه وسلم) (يوم ترى) يحدثهم عن مشهد من مشاهد الآخرة حتى يطمئن المؤمنون في الدنيا إلى ما أعد الله لهم في الآخرة، وحتى يأخذوا حذرهم من خداع الدنيا والشيطان.

كما نلاحظ في المواضع الثلاثة إن الله قرن بين خداع الدنيا وما فيها ومن فيها وخداع الشيطان فجعل خداع الشيطان يوازي خداع الدنيا بما فيها ومن فيها لا لتعظيم شأن الشيطان، ولكن ليأخذ المؤمن حذره منه.

٦ - العَصِيّ:

العصيان: الامتناع عن الانقياد، يقال: عصى، يعصي، معصية، وعصياناً: خرج من طاعته وخالف أمره، فهو عاص، وعصي [(١)].

وأصل العصيان: " أن يتمنع بعصاه، ويقال فيمن فارق الجماعة: شق عصا الطاعة [(٢)]، والعصي: كثير العصيان [(٣)].

(١) سورة الحديد: ١٢ - ١٥ .
(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٤٢٢ .
(٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٣٣٩ .
(٣) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٣٩٣ .

وقد جاءت هذه الصفة منسوبة للشيطان في القرآن الكريم مرة واحدة على لسان سيدنا إبراهيم في خطابه إلى أبيه آزر:{يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياًّ} [١]، والمعنى لا تعبد الأصنام " إذ إن عبادة الأصنام عبادة للشيطان، لأنه هو الذي يسوّلها ويغري بها "[٢]، فالذي يعبدها كأنما يعبد الشيطان، والشيطان عاص للرحمن [٣]، فكأن الذي يعبد الأصنام عاص للرحمن، وجاءت الصفة على وزن فعيل في صيغة المبالغة بمعنى كثير العصيان إشارة إلى كثرة عباد الأصنام سواء أكانت حجارة محسوسة أو أفكاراً معقولة، أو طواغيت معلومة.

٧ - القرين:

يقال فلان قِرْن فلان في الولادة، وقرينه وقِرْنُه في الجلادة وفي القوة وغيرها من الأحوال، قال تعالى:{قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ}[١]، وقال تعالى:{قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ}[٢]، وقال تعالى:{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ}[٣] إشارة إلى شهيده (أي مشاهده) وجمعه قرناء، قال تعالى:{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}[٤]،[٥].

(١) سورة مريم: ٤٤ .
(٢) الشيخ حسنين محمد مخلوف: ص ٣٩٣، مرجع سابق .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤ / ٢٣١٢، دار الشروق .
(١) سورة الصافات: ٥١ .
(٢) سورة ق: ٢٧ .
(٣) سورة ق: ٢٣ .
(٤) سورة فصلت: ٢٥ .
(٥) الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٤٠٣ .

وقد جاءت هذه الكلمة (قرين) في القرآن الكريم مفردة ومضافة وجمعاً ثمان مرات في خمسة مواضع، بمعنى القرين من الجن أو الإنس.

الموضع الأول وجاءت الكلمة في سياق حديث أهل الجنة عن حالهم في الدنيا:{فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ} (١).

واختلف المفسرون في تفسير القرين في الآية، فقال مجاهد: يعني الشيطان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا، ولا تنافي بين الرأيين، فإن الشيطان يكون من الجن فيوسوس في النفس، ويكون من الإنس فيقول كلاماً تسمعه الأذنان، وكلاهما يتعاونان وكل منهما يوسوس (١).

الموضع الثاني: وذكرت فيه الكلمة (القرين) مرتين وجاء في سياق إخبار الله تعالى عن من يتعامى ويتغافل ويعرض عن ذكر الرحمن في الدنيا يقيض الله له شيطاناً يكون قريناً له يضله ويهديه إلى صراط الجحيم حتى إذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به (٢).

---

(١) سورة الصافات: ٥٠ ـ ٥٣ .
(١) ابن كثير: ٤ / ١٢ .
(٢) ابن كثير ٣ / ١٦١ .

قال تعالى:{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ} (١).

الموضع الثالث: وذكرت فيه الكلمة مرتين أيضاً: وجاءتا في سياق حديث الله عز وجل عن المنفقين أموالهم من اليهود أو المنافقين أو المشركين قاصدين إنفاقهم الرياء والسمعة. وكان الشيطان لهم صاحباً وخليلاً، ومن كان الشيطان له صاحباً وخليلاً فبئس الشيطان مصاحباً وخليلاً ملازماً له في الدنيا والآخرة (٢). قال الله عز وجل:{وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَـاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قِرِيناً} (٣).

الموضع الرابع: وذكرت فيه الكلمة مرتين أيضاً، وجاءتا في سياق حديث الله عز وجل عن يوم الحساب، وجاءت الكلمة المرة الأولى بمعنى الملك بعمل ابن آدم يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، والمرة الثانية بمعنى الشيطان الذي وكل بابن آدم يتبرأ منه (١) قال تعالى:{وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} (٢).

(١) سورة الزخرف: ٣٦ - ٣٨ .
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ١٧٣، والشيخ حسنين محمد مخلوف ص ١١٦ .
(٣) سورة النساء: ٣٨ .
(١) ابن كثير: ٤ / ٢٨٦ .
(٢) سورة ق: ٢٣ - ٢٧ .

الموضع الخامس: وجاءت فيه الكلمة جمعاً (قرناء) جمع قرين، يخبر الله تعالى أنه هو الذي أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن[١]، فقال عز وجل:{وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ}[٢].

وهكذا جاءت كلمة (القرين) في القرآن الكريم بمعنى شيطان الإنس والجن في موضعين، وجاءت بمعنى شيطان الجن في ثلاثة مواضع، أي أن شيطان الجن قرين للإنسان في كل الحالات، فهو يوسوس له بشأن البعث بعد الموت، يضله ويهديه في الدنيا إلى صراط الجحيم حتى إذا جاء يوم القيامة تبرأ منه، وهو يتدخل في نيته فيجعل عمله رئاء الناس فيحبطه، وهو يطغيه ثم يوم القيامة يتخلى عنه، وهو يزين له ما بين يديه وما خلفه حتى يتحقق فيهم الخسران المبين.

وهذا كله بأمر الله وحكمته، وهذا كله لا يحدث إلا فيمن يتعامى ويتغافل عن ذكر الله عز وجل.

٨ - القدرة على أن يَرى ولا يُرى:

الرؤية: إدراك المرئي، وذلك أضرب بحسب قوى النفس.

الأول بالحاسة وما يجري مجراها فمن الرؤية بالحاسة قوله

(١) ابن كثير: ٤ / ١٢٣ .
(٢) سورة فصّلت: ٢٥ .

تعالى:{لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ} (١).

وقوله تعالى:{وَيَوْمَ القِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ} (٢).

ومن إدراك المرئي بما يجري مجرى الحاسة قوله تعالى:{وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} (٣)، فإنه مما أجرى مجرى الرؤية بالحاسة؛ فإن الحاسة لا تصح على الله تعالى عن ذلك. ومنه قوله تعالى عن الشيطان:{إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ} (٤) (٥).

وهذا هو الموضع الوحيد الذي جاء في القرآن الكريم يتحدث عن قدرة الشيطان على مراقبة الإنسان بحيث لا يراه الإنسان، ويرى هو الإنسان، وجاء الحديث عن هذه الخاصية للإنسان في معرض تحذير الله عز وجل بني آدم من أن يضلهم الشيطان ويفتنهم كما فتن أبويهم آدم وحواء فأخرجهما من الجنة، يزيل عنهما لباسهما استلاباً بخداعه، ليرى كل واحد سوءة الآخر، ويعلل لهم لهذا التحذير من متابعته أنه يراهم وهو وولده وجنوده من الجنة من حيث لا يرونهم هم بصورتهم الخلقية، أما إذا تمثلوا بصور أخرى فإنهم يرونهم وقد وقع ذلك كثيراً (١)،

(١) سورة التكاثر: ٦ - ٧ .
(٢) سورة الزمر: ٦٠ .
(٣) سورة التوبة: ١٠٥ .
(٤) سورة الأعراف: ٢٧ .
(٥) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن / ص ١٨٩ .
(١) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٢٩٠، وانظر الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٢٠٢ .

قال تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [١].

وإن عدواً يراك ولا تراه لشديد الإيمان إلا من عصم الله [٢]، وذلك أجدر بالإنسان أن يكون شديد الحيطة دائم الحذر، لكي لا يأخذه الشيطان على غرة [٣].

* * *

ثانياً: أعوان الشيطان

١ - جنود إبليس:

الجند: يقال للعسكر الجند اعتباراً بالغلظة من الجند أي الأرض الغليظة التي فيها حجارة، ثم يقال لكل مجتمع جند نحو قوله تعالى:{وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغَالِبُونَ} [١][٢]، وجمع الجند أجناد وجنود، قال تعالى:{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} [٣].

وعلى ذلك فجنود إبليس هم المجتمع الغليظ الجافي سواء كانوا من الجن أو من الإنس ذلك أن للشيطان جنوداً مادية من الجن والإنس، وجنوداً معنوية يستخدمها في إضلال الناس، ومن أكبر جنود الشيطان المعنوية الغرور، فهو يظل يحوم حول الإنسان حتى

(١) سورة الأعراف: ٢٧ .
(٢) الراغب الأصفهاني / ١٨٩، والشيخ حسنين مخلوف ص ٢٠٢ .
(٣) سيد قطب: في ظلال القرآن ٣ / ١٢٨٠ .
(١) سورة الصافات: ١٧٣ .
(٢) سورة الشعراء: ٩٥ .
(٣) الراغب الأصفهاني: المفردات ص ١٠٧ - ١٠٨ .

يدخل إلى قلبه الغرور المعنوي والمادي ويحاول أن يجعله يغتر بماله.. أو بعلمه.. أو بقوته.. أو بأي شيء آخر.. المهم أن يغتر الإنسان، ويحسب أنه استغنى عن الله تبارك وتعالى.. وينسب الفضل إلى نفسه.. فيقع في المعصية والكفر " (١).

وجاءت كلمة جنود مضافة إلى إبليس في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى:{وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ *} (٢).

وجنود إبليس هم أتباعه ومن أطاعه من الجن والإنس، ويقال: ذريته (٣).

{فَكُبْكِبُوا فِيهَا} أي ألقوا فيها على رءوسهم مرة بعد مرة إلى أن استقروا في قعرها من الكبكبة، وهي الإلقاء على الوجه مرة بعد أخرى(١). ولعل هذا الجزاء من جنس صنيعهم حيث إن جنود إبليس من الجن والإنس لا تنفك عن الغواية والإضلال للإنسان مرة بعد مرة في الذنب الواحد.

(١) الشيخ محمد متولي الشعراوي: الشيطان والإنسان ص ٩٢ - ٩٣ .
(٢) سورة الشعراء ' ٩٠ - ٩٥ .
(٣) البغوي: مختصر تفسير البغوي ٢ / ٦٧٤ .
(١) الشيخ حسنين محمد مخلوف: صفوة البيان ص ٤٧٣ .

أولياء الشيطان:

أولياء جمع ولي، وهو: كل من وَلي أمراً أو قام به، وتطلق على النصير، والمحب، والصديق، والمطيع [١].

والوَليّ والمولى، كل واحد منهما يقال في معنى الفاعل أي المُوَالي، وفي معنى المفعول أي المُوَالى، يقال للمؤمن هو ولي الله عز وجل ولم يرد مولاه، وقد يقال الله تعالى ولي المؤمنين ومولاهم...

ونفى الله تعالى الولاية بين المؤمنين والكافرين في غير آية... وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة في الدنيا، ونفي بينهم الموالاة في الآخرة، قال تعالى في الموالاة بينهم في الدنيا:{إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللّهِ} [٢]،{إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [١]،{فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ} [٢]، فكما جعل بينهم وبين الشيطان موالاة جعل للشيطان عليهم سلطاناً في الدنيا، فقال تعالى:{إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ} [٣]، ونفى الموالاة بينهم في الآخرة، فقال تعالى في موالاة الكفار بعضهم بعضاً:{يَوْمَ لاَ يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئاً} [٤]،[٥].

(١) المعجم الوجيز ص ٦٨٢ .
(٢) سورة الكهف آية: ٣٠ .
(١) سورة الأعراف آية: ٢٧ .
(٢) سورة النساء آية ٧٦ .
(٣) سورة الدخان آية: ٤١ .
(٤) سورة النحل آية: ١٠٠ .
(٥) الراغب الأصفهاني: المفردات ص ٥٤٧ - ٥٤٨ .

فكأن اللغة تستعمل أولياء الشيطان هم الموالون له المطيعون المحبون، الناصرون الأصدقاء على معنى الفاعل في كلمة ولي بمعنى موالٍ، وعلى معنى المفعول بمعنى الموَالَوْن منه، المطاعون، المحبون، المنصورون، والسؤال الآن هو هل يفعل لهم مثل ما يفعلون له بمعنى هل يطيعهم كما يطيعونه؟. هل يتولاهم كما يتولونه؟ هل ينصرهم كما ينصرونه؟ هل يحبهم كما يحبونه؟

هذا ما سيتضح لنا ونحن نتعرف على أولياء الشيطان في القرآن، وقد جاء ذكر أولياء الشيطان في القرآن في ستة مواضع:

الموضع الأول: قوله تعالى:{إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (١).

وقد سبق أن تعرضنا لهذه الآية ونحن نتعرف على فعل من أفعال الشيطان وهو التخويف، ومثلنا إن الآية وإن كانت تعقيباً على حادثة بعينها وهي تخويف الشيطان المؤمنين من أولياء الشيطان وهم الكافرون بعد وقعة أحد حين ندب النبي (صلي الله عليه وسلم) الناس للخروج معه لملاقاة التجار القادمين المدينة في ذي القعدة، وكانت وقعة أحد في شوال... فجاء الشيطان فخوف المؤمنين من أوليائه فقال: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فأبى الناس أن يتبعوا رسول الله (صلي الله عليه وسلم)، فقال: إني ذاهب وإن لم يتبعني أحد فانتدب معه كبار الصحابة في سبعين رجلاً فساروا في طلب أبي سفيان حتى بلغوا الصفراء " (١).

(١) سورة آل عمران: ١٧٥ .
(١) راجع جلال الدين السيوطي: أسباب النزول ص ٦٦ .

فهذه الآية وإن كانت تعقيباً على هذا الحادث إلا أن معناها عام في كل عصر ومصر ذلك أن الشيطان كان ولا يزال يخوف الناس من أوليائه ويجعلهم مصدر خوف ورعب وأن يخلع عليهم سمة القوة والهيبة... ومن ثم ينبغي أن يفطن المؤمنون إلى مكر الشيطان وأن يبطلوا محاولته، فلا يخافوا أولياءه هؤلاء ولا يخشوهم بل يخافوا الله وحده، فهو وحده القوي الطاهر الذي ينبغي أن يُخَاف منه (١).

والسؤال هل كان أولياء الشيطان كما رسمهم الشيطان؟ هل كانوا مصدر خوف ورعب؟ والواقع يقول في هذه الحادثة بعينها إنهم كانوا هواء بدليل أن الله قذف في قلوبهم الرعب " فقد ألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان يوم أحد بعد الذي كان منه فرجع إلى مكة، فقال النبي (صلي الله عليه وسلم) لأصحابه إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب " (١).

ولا يزالون مهزومين من الداخل كما صورهم القرآن الكريم في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى:{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ}.. " (٢).

والموضع الثاني: هو قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} (٣).

(١) راجع: سيد قطب: في ظلال القرآن ١ / ٥٢١ .
(١) راجع جلال الدين السيوطي: أسباب النزول ص ٩٦ .
(٢) سورة الحشر: آية: ٢ .
(٣) سورة النساء آية: ٧٦ .

وقد سبق أن تعرضنا لهذه الآية - أيضاً - ونحن نتحدث عن كيد الشيطان، وقلنا: إن الله يأمر بقتال أولياء الشيطان مؤكداً{إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً} أي مكره ومكر من اتبعه (١)، وهم أولياؤه وأتباعه.

والموضع الثالث: الذي يتحدث عن أولياء الشيطان يأتي في قوله تعالى:{وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهَّ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (٢)، والآية كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تحريم الميتات وما في معناها من المنخنقة وغيرها،وقال عطاء: في تحريم الذبائح التي كانوا يذبحونها على اسم الأصنام، وعلى كل فإن الشياطين يوسوسون إلى أوليائهم من المشركين ليجادلوا المؤمنين في الشاة الميتة والمذبوحة فيقولون: يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ فقال: الله قتلها، قالوا: أفتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتله الكلب والصقر والفهد حلال، وما قتله الله حرام؟ فأنزل الله هذه الآية، وفيها يقول تعالى:{وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ} في أكل الميتة{إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (١).

(١) القرطبي: تفسير القرطبي ٥ / ١٨١ .
(٢) سورة الأنعام آية: ١٢١ .
(١) البغوي:مختصر البغوي ١ / ٢٧٠ .

والموضع الرابع: في قوله تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ}(١)،(٢).

والموضع الخامس: في قوله تعالى:{فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ}(٣).

أي إن الذين حقت عليهم الضلالة هم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون (٤).

والموضع الأخير: في قوله تعالى:{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً} (١).

وفيها يعاتب الله بني آدم حين يتخذوا الشيطان وذريته أولياء من دونه وهم الأعداء لهم بئس للظالمين ما استبدلوا طاعة إبليس وذريته بعبادة ربهم " (٢).

ونظرة متأملة في صفات أولياء الشيطان يتضح لنا أنَّهْم هم الأتباع المهزومون الموسوس إليهم المخدوعون أنصار العدو اللدود.

(١) سورة الأعراف آية: ٢٧ .
(٢) البغوي:مختصر البغوي ١ / ٢٩٠.
(٣) سورة الأعراف آية: ٣٠.
(٤) راجع: مختصر البغوي ١ / ٢٩١.
(١) سورة الكهف آية: ٥٠.
(٢) البغوي: ٢ / ٥٤٠ مرجع سابق.

٣- حزب الشيطان:

الحزب: كل طائفة جَمَعها الاتجاه إلى غرض واحد.. وحزب الرجل أعوانه (١).

وأصله الحزب: جماعة فيها غلظ ومنه قوله تعالى:{حِزْبُ الشَّيْطَانِ} (٢)، بمعنى أعوانه المتجهون إلى غرض واحد وهو الإفساد على بني آدم وإضلالهم وإغوائهم.. الخ..

وقد جاءت كلمة حزب في القرآن الكريم مضافة إلى الشيطان (حزب الشيطان) مرتين في موضع واحد ومضافة إلى ضمير يعود على الشيطان (حزبه) مرة واحدة.

قال تعالى:{اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ} (١).

وقد سبق أن تعرضنا لهذه الآية في حديثنا عن فعل من أفعال الشيطان وهو الاستحواذ، والضمير في استخوذ عليهم يعود على المنافقين الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم وهم اليهود، فأنساهم تذكر الله والخوف منه والرغبة إليه حتى فسدت قلوبهم وخلصت للشر فصاروا حزب الشيطان، وأعوان الشيطان، وجماعة الشيطان الذين يقفون تحت لوائه، ويعملون باسمه، وينفذون غاياته، فلم يربحوا من ذلك إلا الخسران{أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ} (٢).

---

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ١٤٨.
(٢) الراغب الأصفهاني: المفردات ص ١٢٢.
(١) سورة المجادلة آية: ١٩.
(٢) راجع بتصرف سيد قطب: في ظلال القرآن ٦ /٣٥١٣.

والآية وإن كانت تتحدث عن المنافقين في عصر النبوة إلا أن معناها يعم الزمان والمكان، ومازلنا نرى حزب الشيطان، وسنظل نراه حتى ينفذ وعد الله{إِلَى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ}.

أما الموضع الثاني الذي جاءت فيه كلمة حزب مضافة إلى ضمير يعود إلى الشيطان فهو قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهَّ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهَّ الغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواً إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} (١).

والشاهد معنا هو قوله تعالى:{إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ} أي أتباعه وأولياءه{لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} أي ليكونوا في السعير (٢) أي النار الموقدة.

وهكذا فإن حزب الشيطان هم المنافقون الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم تذكر الله فكانوا من الخاسرين وخاتمتهم نار السعير.

٤- إخوان الشيطان:

الأخ: من جمعك وإياه صلب أو بطن أو هما معاً... وأخو الشيء: صاحبه وملازمه، يقال أخو أسفار: كثيرها، وأخو القبيلة أحد رجالها، والجمع إخوان وإخوة (١).

أي أن الأخ هو المشارك آخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعار في كل مشارك لغيره في القبيلة أو

(١) سورة فاطر آية: ٥ - ٦.
(٢) البغوي: مختصر تفسير البغوي ٢ / ٧٦٦.
(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز ص ٩.

في الدين أو في صنعته أو في معاملة أو في مودة... وفي غير ذلك من المناسبات، ومنه قوله تعالى:{لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ}[١]، أي لمشاركيهم في الكفر "[٢].

وعلى هذا المعنى يحمل قوله تعالى:{إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً}[٣]، والمبذر الذي ينفق ماله في المعصية، أو في غير حقه، ومعنى:{كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ} أي أولياءهم، والعرب تقول لكل ملازم سُنَّة قوم هو أخوهم[٤]، فإخوان الشياطين هم الملازمون لهم وهم المبذرون المنفقون أموالهم أولياء منها ولو يسيرا في الباطل أو في المعاصي، وهم رفقاؤهم وأصحابهم.

ووصف الله الشيطان هنا بالكفر أي بالمبالغة في الكفر أي الجحود، فقال تعالى:{وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً} يعني جحوداً لنعمه[١]، فكأن المبذر أيضاً جحوداً لنعمة ربه عليه حين ينفقها في غير حقها أو في الباطل، ولو كان شيئاً يسيراً، فهو ندّ الشيطان في هذه المعصية، ذلك أن المال عصب الحياة، والإسلام دين الوسطية والقصد والاعتدال في كل شيء؛ لذا جاء في الآية بعد ذلك:{وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً}[٢].

* * *

(١) سورة آل عمرن: ١٥٦.
(٢) الراغب الأصفهاني: لمفردات في غريب القرآن ص ٢٢.
(٣) سورة الإسراء آية: ٢٧.
(٤) البغوي: مختصر تفسير البغوي: ١ / ٥١٢.
(١) البغوي: مختصر تفسير البغوي ١ / ٥١٢.
(٢) سورة الإسراء آية: ٢٩.

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وبعد،،

فبعد هذه الجولات في رحاب القرآن الكريم ونحن نتعرف على أسلوب القرآن الكريم في رسم صورة الشيطان الرجيم، رأينا القرآن الكريم يرسم صورة حية ناطقة شاخصة معبرة عن الشيطان الرجيم منذ أن خلقه الله من نار ورأينا آثار هذه الخلقة عليه، واعتداءه بها، ورأينا مدى قبح رأسه التي فيها وجهه الذي يفترض أنه يجمع محاسن خلقته. ورأيناه مع الملائكة في الجنة يأبى ويستكبر ويمتنع عن الامتثال لأمر الله له بالسجود لآدم مع الملائكة الذين خروا ساجدين لأمر الله إكراماً لآدم سجود تحية وإعظام لا سجود عبادة، ورأيناه وهو يوسوس لآدم وزوجه ليأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وأغراهما، وقاسمهما، وأزلهما، وأخرجهما مما كانا فيه، ورأيناه وهو يطرد من الجنة ملعوناً مذءوماً مهدداً هو ومن تبعه من ذرية آدم بجهنم، ورأيناه وسمعنا تذلله لله أن ينظره إلى يوم القيامة، وأجابه إلى طلبه، ولكنه يقسم بعزة الله أن يغوي آدم وذريته ويضلهم ويفعل بهم الأفاعيل، وعشنا مع القرآن يصور لنا أفعاله التي بها يكبد لآدم وذريته وهي الإزلال بمعنى الإسقاط والتنحية وإخراج آدم وذريته من الجنة، والمس، والوسوسة والتعري والوعد الخادع والتخويف، والإضلال، والصَّد عن كل خير، والتزيين، والنزغ بين بني آدم، والإنساء، والهمز، والفتنة، والأز، وإيقاع العداوة والبغضاء والتسويل والإملاء، وإلقاء الشُّبَه والتخيلات الباطلة، والاستحواذ،

والنجوى ورأينـا أسلوب القرآن وهو يصف الشيطان بأنـه الـرجيم بمعنـى المرجوم، والمـارد والمريـد، والعـدو، والملعـون، والعصـي، والقرين، والذي يرى ولا يُرى، ورأينـا أسلوب القرآن وهو يعرض لنا صفات أعوان الشيطان وهم جنوده وأولياؤه وحزبه وإخوانه.

نـدعو الله أن تكـون هـذه الصـورة كافيـة لنعـرف عـدونا فنتقيـه، ونعرف أفعاله فنتجنبها حتى يكتب الله لنا الفلاح في الـدنيا والآخـرة.. اللهم آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلي الله وسلم وبـارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وعنا معهم.. اللهم آمين..

* * *

المصادر والمراجع

أسلــوب القــرآن
في رســم
صــورة الشيطـــان

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم: عز من أنزله.

ثانياً: الكتب المطبوعة:

١ - **إبراهيم عبد العليم عبد البر:**

الرد المبين على بدع المعالجين وأسئلة الحائرين في مجال المس والسحر - الفاروق الحديثة للطباعة والنشر - القاهرة.

٢ - **البخاري:**

صحيح البخاري - المكتبة العصرية - بيروت ط ٢ سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م.

٣ - **البغوي:**

مختصر تفسير البغوي - مكتبة المعارف ط ١ سنة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م.

٤ - **ابن جرير الطبري:**

المصحف المفسر - دار الغد العربي.

٥ - **ابن كثير:**

تفسير القرآن العظيم - مؤسسة الريان ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م.

٦ - **ابن منظور المصري:**

لسان العرب - دار المعارف.

٧ – **جلال الدين السيوطي:**

- أسباب النزول - مكتبة نصير بجوار إدارة الأزهر - القاهرة.

- الإتقان في علوم القرآن - دار الندوة الجديدة.

٨ – **حسنين محمد مخلوف:**

- صفوة البيان في معاني القرآن - مطبعة المدني - المؤسسة السعودية بمصر - الطبعة الثامنة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.

٩ – **حمدي الدمرداش محمد:**

معجزات القرآن في علاج لمس والجان - دار والي المنصور.

١٠ – **الرازي:**

مختار الصحاح - مؤسسة الرسالة ط ٧، سنة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م.

١١ – **الراغب الأصفهاني:**

المفردات في غريب القرآن - المكتبة التوفيقية.

١٢ – **الزركشي:**

البرهان في علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية ط ٣ سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م.

١٣ – **سيد قطب:**

- التصوير الفني في القرآن الكريم - دار المعارف ط ٨.

- في ظلال القرآن الكريم - دار الشروق ط ١٢ سنة ١٤٠٦ هـ

/ ١٩٨٦ م.

١٤ – **صلاح عبد التواب – الدكتور:**

الصورة الأدبية في القرآن الكريم - الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان.

١٥ – **عباس محمود العقاد:**

إبليس - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت.

١٦ – **عبد الجليل عيسى:**

المصحف المفسر - هدية مجلة صوت الأزهر.

١٧ – **عبد الرحمن بن ناصر السعدي:**

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

١٨ – **الفيومي:**

المصباح المنير - دار الحديث.

١٩ – **القرطبي:**

تفسير القرطبي - دار القلم للنشر.

٢٠ – **مجمع اللغة العربية:**

المعجم الوجيز - طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم سنة ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م.

٢١ – **محمد علي السايس:**

تفسير آيات الأحكام - تحقيق طه عبد الرءوف سعد - المكتبة الأزهرية للتراث ط / سنة ٢٠٠١ م.

٢٢ – محمد متولي الشعراوي:

الشيطان والإنسان - مكتبة الشعراوي الإسلامية - أخبار اليوم - قطاع الثقافة.

٢٣ – النيسابوري:

أسباب النزول - هامش المصحف المفسر لابن جرير الطبري - دار الغد العربي.

* * *

الفهــرس

أسلــوب القــرآن
في رســم
صــورة الشيطـــان

الفهـرس

* * *

أعلام التابعين

إعداد

دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتـــاب :	أعلام التابعين
إعـــــــــداد:	دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعـــــــــة :	طبعة أولى / ١٤٣٢هـ – ٢٠١١ م
الناشـــــــــر :	مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيـــداع :	

مكتبـــة جزيرة الورد – القاهـــرة / ميدان حليـــم
خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
٠١٢/٩٩٦١٦٣٥ – ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤
٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦ – ٠١٠/٠١٠٤١١٥

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه، فلا يحويه زمان، ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا، وعدله اصطناعا، فأحسن كل شيء خلقه، وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه، ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلها تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، وعلا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام ولا تحيط به العقول، ولا الأفهام يعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون.

وأشهد شهادة حق، وقول صدق بإخلاص نية، وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه، وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق، فبلغ ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم، ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضيا على سنته موفيا على قصده، حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكّركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُ في إرسال اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى: { وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤]، اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنة عبرالتاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:(**قوموا، فانحروا ثم احلقوا**)، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلّم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسان - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًا وتتأثر بها إيجابيًا،

وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربةً للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة،{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب. نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقْر دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكلَه الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌّ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة، في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا

وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ } [الأنبياء: ٩٠]. وقد أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ } [الأنعام: ٩٠].

أيها المسلمون، إذا كان الحبيب محمد مأمورًا بأخذ الأسوة والقدوة من سلفه رسل الله، فنحن أحرى أن نأخذها منه، كما وجهنا إلى ذلك ربّ العزة. وفي هذا التوجيه الرباني دعوة إلى كل ذي عقل رشيد أن يضع نصب عينه أخذ الأسوة والقدوة من سيد الخلق أجمعين، في أقواله وأفعاله، وفي مناهجه وشمائله وأخلاقه وسلوكيّاته، فهو المثل الكامل للإنسانية.

وقد سار أصحابه رضوان الله عليهم على نهجه، فلم يحجموا عن مكرمة أو يقصروا عن شيء من فعل الخير، ويأتي بعد ذلك أخذ الأسوة والقدوة الحسنة من خيار الأمة، وفي طليعتهم أهل القرون المفضّلة المشهود لهم بالهداية من التابعين وتابعي التابعين، قال:(**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**).

وهكذا في كل زمان يجب أخذ الأسوة الحسنة من أهل الفضل، ومن العلماء العاملين بعلمهم، المخلصين لدينهم، الذين يتقون الله في سرهم وعلانيتهم، الذين يقولون كلمة الحق بدون خوف أو وجل، لا تأخذهم في الله لومة لائم، الذين لا يلحدون في آيات الله، ولا يحرّفون الكلم عن مواضعه، الذين لا ينافقون ولا يجاملون. فهؤلاء العلماء ممن هدى الله وشرح صدورهم للإيمان، ففي السير على هدايتهم والاقتداء بأفعالهم فلاح وفوز في الدنيا والآخرة.

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروي أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد

يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: " يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۡ} [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد علي خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون، أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

ورد في الأثر الذي رواه أحمد بسند حسن من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه قال: (من كان مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم ، كانوا أفضل هذه الأمة، وأبرها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحبة نبيه،

ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم).

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ:{وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤}
[آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ} [هود: ١١٦] مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وهكذا جيل التابعين - رضي الله عنهم - كانوا روحا نابضة، وقوة متجددة، وصفحة مشرقة لم تزدها الأيام إلا قوة ومضاء ولا الأحداث إلا نصوعا وإشراقا، فكانوا يبادرون إلى كل خير ويتنافسون في الاستباق إليه، ويكفيهم فخرا وعزا أنهم - على رغم ما مروا به من ظروف قاسية - سطروا أروع الأمثلة وأنصعها في بلوغ الكمال الإنساني، إذ من السابقين المضحين منهم تكون نواة لمجتمع رباني نما واتسع

فيما بعد بسرعة فائقة حتى عم خيره بقاع الدنيا بأسرها، ولا تزال آثاره باقية بفضل الله تعالى.

فهذا الذي فعلوه وحققوه ليس ضربا من ضروب الأحلام، أو الخيال، أو المحال، لا بل هو مثال واقع محسوس في دنيا الناس وعلى أرضهم، وسنة سنوها وحازوا سبقها فنالوا أجرها وأجر من تبعهم فيها.

وأخيرا فلئن كانت حياة التابعين - رضي الله عنهم - كلها مليئة بالصور المضيئة المشرقة فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من هذه الجوانب المشرقة من حياتهم، وذلك تذكيرا بجهادهم وسبقهم وتنويها بمنزلتهم وفضلهم.

سائلا الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ::: إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلي عفو ربه ومغفرته ورضوانه،

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

تعريف التابعي:

لغة: التابعون جمع تابعي أو تابع، والتابع اسم فاعل من " تبعه " بمعنى مشَى خلفه.

اصطلاحاً: اخْتُلِفَ في حدِّ التابعيِّ، فقالَ الحاكمُ وغيرهُ: إنَّ التابعيَّ مَنْ لقيَ واحداً منَ الصحابةِ فأكثرَ.

ولكنَّ ابنَ حبَّانَ يشترطُ أن يكونَ رآهُ في سنٍّ مَنْ يحفظُ عنهُ، فإنْ كانَ صغيراً لمْ يحفظْ عنهُ فلا عبرةَ برؤيتِهِ، كخلفِ بنِ خليفةَ، فإنَّهُ عدَّهُ في أتباعِ التابعينَ، وإنْ كانَ رأى عمرَو بنَ حريثٍ؛ لكونهِ كانَ صغيراً [١].

وقالَ الخطيبُ: " التابعيُّ مَنْ صَحِبَ الصحابيَّ "، والأولُ أصحُّ، ورجَّحهُ ابنُ الصلاحِ فقالَ[٢]: " والاكتفاءُ في هَذَا بمجردِ اللقاءِ والرؤيةِ أقربُ منهُ في الصحابةِ نظراً إلَى مقتضى اللفظينِ فيهما " وقالَ النوويُّ في " التقريبِ والتيسيرِ ": " إنَّهُ الأظهرُ ". انتهى.

وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلي الله عليه وسلم :(طُوبَى لِمَنْ رَآنِى وَآمَنَ بِى وَطُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِى وَلَمْ يَرَنِى سَبْعَ مِرَارٍ) [٣]، فاكتفى فيهما بمجردِ الرؤيةِ.

والتابعينَ طِبقَاتٌ، فجعلهم مسلمٌ في كتابِ " الطبقاتِ " ثلاثَ طبقاتٍ. وكذا فعلَ ابنُ سعدٍ في " الطبقاتِ "، وربَّما بلغَ بهم أربعَ طبقاتٍ. وقالَ الحاكمُ في "

---

(١) مقدمة ابن الصلاح - (ج ١ / ص ٦٧)، والباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث - (ج ١ / ص ٢٦) والتقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث - (ج ١ / ص ٢١)، وفتح المغيث بشرح ألفية الحديث - (ج ٢ / ص ٣٩٥)، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي - (ج ٢ / ص ١٢٦)، وألفية السيوطي في علم الحديث - (ج ١ / ص ٤٤)، وتيسير مصطلح الحديث - (ج ١ / ص ٣٦)، والشذا الفياح من علوم ابن الصلاح - (ج ٢ / ص ٥١٩)، وألفية العراقي في علوم الحديث - (ج ١ / ص ٦٦)، وشرح اختصار علوم الحديث - (ج ١ / ص ٣٨٩)، وشرح التبصرة والتذكرة - (ج ١ / ص ٢٢٢)، وتوجيه النظر إلى أصول الأثر - (ج ٢ / ص ٣١)، والتقييد والإيضاح للحافظ العراقي - (ج ١ / ص ٥٨) ومنظومة مصباح الراوي في علم الحديث - (ج ١ / ص ١١٦).

(٢) مقدمة ابن الصلاح - (ج ١ / ص ٦٧).

(٣) مسند أحمد(٢٢٧٩٣) حسن لغيره.

علومِ الحديثِ ": هم خمسَ عشرةَ طبقةً، آخرهم مَنْ لقيَ أنسَ بنَ مالكٍ من أهلِ البصرةِ، ومَنْ لقيَ عبدَ اللهِ ابنَ أبي أوفى من أهلِ الكوفةِ ومَنْ لقيَ السائبَ بنَ يزيدَ من أهلِ المدينةِ " وعدَّ الحاكمُ منهم ثلاثَ طبقاتٍ فقطْ [١].

وقد قال صلي الله عليه وسلم :**(اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)** [٢].

فأخذ رسول الله صلي الله عليه وسلم السنة عن الله عز وجل، وأخذ الصحابة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وأخذ التابعون عن الصحابة الذين أشار إليهم رسول الله صلي الله عليه وسلم بالاقتداء بهم، ثم أشار الصحابة إلى التابعين بعدهم.

وكان من سياسات أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ألا يسمح للصحابة من المهاجرين والأنصار بالإقامة خارج المدينة، فهم في غير المدينة دائما مسافرون يذهبون لغزو أو تعليم أو ولاية أو قضاء أو غير ذلك من المهام، وتبقى المدينة المستقر والمقام لهم بعد ذلك، فهي حاضرة الدولة وقاعدة الخلافة، وهم حملة رسالة الإسلام ورعيله الأول فيجب أن يكونوا قريبين من الخليفة، أعوانا له على أعبائه، مشاركين إياه في شؤون الأمة كلها.

فلما ولي عثمان رضي الله عنه لم ير باسا في أن يسمح لكل من أراد من الصحابة مغادرة المدينة أو يستوطن حيث يشاء من ديار الإسلام، فتفرق فقهاء الصحابة وقراؤهم في الأمصار التي فتحت، والبلدان التي مصرت، فاستوطن المصرين (البصرة والكوفة) ما يزيد عن ثلاثمائة من الصحابة، وأقام في مصر والشام عدد منهم.

ولقد نقل أن رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد أن رجع من حنين ترك في المدينة اثني عشر ألفا من الصحابة، بقي منهم فيها حتى وفاته عشرة آلاف، وتفرق ألفان منهم في الأمصار.

(١) تهذيب الكمال للمزي - (ج ١١ / ص ٧٣).
(٢) الطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ ص ٣٤٤ حديث رقم: ٥٥٠٣ وضعفه الألباني انظر: السلسلة الضعيفة رقم ٢٣٣٠.

وقد حمل علم وفقه الفقهاء والقراء من الصحابة بعدهم من تلقى عنهم من التابعين، أمثال: سعيد بن المسيب الذي يعتبر راوية عمر وحامل فقهه في المدينة، وعطاء بن أبي رباح في مكة، وطاووس في اليمن، ويحيى بن أبي كثير في اليمامة، والحسن في البصرة، ومكحول في الشام، وعطاء في خراسان، وعلقمة في الكوفة وغيرهم... وهؤلاء كانوا كثيرا ما يمارسون الفتوى والاجتهاد بمشهد من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم الذين تلقوا العلم والفقه عنهم، وتربوا على أيديهم، وتأدبوا بآدابهم، وتأثروا بمناهجهم في الاستنباط، فما خرجوا عن آداب الصحابة في الاختلاف عندما اختلفوا، ولا جاوزوا تلك السيرة، وهؤلاء هم فقهاء الجمهور الذين تأثرت بهم جماهير الأمة، وعنهم تلقوا الفقه.

مميزات عصر التابعين:

وقد نما الفقه في عصر التابعين نمواً عظيماً، توازياً مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية ومواكبة لطروء الحوادث وتكاثرها. وقد تعددت لذلك المدارس الفقهية التي انضوت، على الرغم من تعددها، تحت تيارين كبيرين هما تيار أهل الرأي وتيار أهل الأثر أو أهل الحديث. وقد أسهم النزاع بين الفريقين حول بعض القضايا الأصولية كالإجماع والعرف والقياس ومذهب الصحابي في بلورة هذه القضايا على أسس علمية، وإن ظلت غير مدونة.

وشهد عصر التابعين حركة حضارية وعلمية ودعوية أثرت تأثيراً بالغاً في تطور الحياة الفقهية. فقد ساعد الاحتكاك الحضاري بين المسلمين والشعوب التي دخلت الإسلام، وتفرق الصحابة في الأمصار، وشيوع رواية الحديث، على اتساع دائرة البحث الفقهي، وعلى ظهور اتجاهات فقهية عديدة شكلت مدارس فقهية في مختلف العواصم الإسلامية، كمدرسة الكوفة والمدينة ومكة والشام ومصر واليمن.

غير أن الملاحظ هو بروز عامل جديد أثر في طبيعة الإنتاج الفقهي في هذا العصر، وفي العصور التي تلته، تمثل في الصراع بين الفقهاء وحكام بني أمية. ومرجع هذا الصراع هو تحوّل نظام الحكم في العالم الإسلامي من الخلافة إلى

الملك، فتقلّص دور الفقيه المباشر في إدارة شؤون الدولة والمجتمع، الأمر الذي أدى إلى توسع الدراسات الفقهية في جانب العبادات والمعاملات أكثر منه في الجانب السياسي والاقتصادي والإداري.. وهذا لا يعني أن التشريع الإسلامي قد أقصي عن إدارة الحياة العامة، فكل المجالات السالفة ذكراً كان يحكمها الإسلام، ولكن البحث الفقهي النظري قد تطور أكثر في المساحات أو الموضوعات التي لم تكن محل صراع بين الفقهاء والحكام.

والخلاصة أن عصر التابعين شهد تشكّل بذور إحدى أزمات الفقه الإسلامي وهي: انكماش الفقه من الناحية الموضوعية.

كما أن تاريخ القراءات القرآنية يشير إلى ازدياد اختيارات القراء في عصر التابعين وتابعيهم، حتى بلغ عدد القراء المشهورين العشرات، وجعل ذلك ابن مجاهد يختار سبع قراءات ضمَّنها في كتابه (السبعة)، وأدرج ما عداها في كتابه الآخر (شواذ السبعة)، وتلقت الأمة اختياره بالقبول، وصارت القراءات السبع التي اختارها ابن مجاهد هي الصحيحة المشهورة، وأُلحقت بها بعد ابن مجاهد القراءات الثلاث المتممة لها عشراً.

وقد فتح الله على المسلمين كثيراً من بلادهم العالَم في حياة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وفى عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعاً في بلد واحد من بلاد المسلمين، بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزَّعين على جميع البلاد التي دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلّمون، ومنهم غير ذلك.

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التي رحلوا إليها، ما وعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت في هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسِّرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة، وثالثة

بالعراق، وهذه المدارس الثلاث،

هى أشهر مدارس التفسير في الأمصار في هذا العهد.

ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكرى الاقدار فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما وكانوا يصنفون كل باب على حدة إلى أن قام التابعون فدونوا الأحكام فصنف الإمام مالك الموطأ وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومن بعدهم وصنف أبو محمد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج بمكة وأبو عمر وعبد الرحمن بن عمر والأوزاعي بالشام وأبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري بالكوفة وأبو سلمة حماد بن سلمة بن دينار بالبصرة ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم في النسج على منوالهم.

والحقيقة أنه بعد أن انتهى الجيل الأول، وذهب قرن الصحابة رضي الله عنهم. بدأ عصر التابعين، فتحمل التابعون بإحسان عن الصحابة رضي الله عنهم العلم والإيمان، والشعور العميق بعظم المسؤولية الملقاة عليهم بتبليغ العلم والإيمان للاجيال من بعدهم، كما بلغتهم.

وتوالت المحن في عصر التابعين،.. ويطالعنا التاريخ بألوان شتى من محن الإسلام.. ففي هذه المرحلة تتكاتف لهدم الإسلام معاول الأبناء والأعداء، ففي عام ٧٥ هـ يتولى الحجاج بن يوسف الحكم في العراق. ويشهد هذا البلد الإسلامي في عهده أيامًا سوداء. فقد أبتلي التابعون بأقسي أنواع البلاء، ولم يسلم منه إلا القليل. ولكن ومن سنة الله في خلقه أنه يهيء للطغاة رجالاً لا يهابون الطغيان.. يصنعهم على عينه. ويهبهم الجرأة فيه، وكان سعيد بن جبير أحد هؤلاء الذين خلصوا من حظ أنفسهم..

وعندما صمم الحجاج على قتله والخلاص منه أرسل جنودًا بطلبه فجاءوا به، وأدخلوه عليه، ثم ذبحوه على النطع - رحمه الله -، وعاش الحجاج بعده خمس عشرة ليلة ثم مات.

كما أبتلي الكثير من التابعين بجور السلطان وظلم الطغاة، ولكن قيض الله للإسلام والمسلمين من التابعين من وقف في وجه الظالمين الطغاة ووقف لهم بالمرصاد وأعاد للناس حقوقهم السليبة.

كما أبتلي الكثير منهم بمحنة خلق القرآن في عهد الدولة العباسية، ومات فيها الكثير، وفتن البعض في دينهم، ولكن كان هناك من صبر ووقف في وجه الدولة العباسية وعلي رأسها الخلفاء مثل إمام الدنيا الإمام أحمد بن حنبل الذي أبتلي وضرب وسجن ولكنه صبر حتي جاء الخلاص من الله.

كما أن التابعين - بالإضافة إلي دورهم الفقهي والدعوي - كانت لهم مواقفهم السياسية، والاجتماعية والاقتصادية، وشاركوا الناس حياتهم اليومية ولم يكونوا بمعزل عنهم.

* * *